9me Année No. 433

Lundi - 20 - 10 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٣٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٩ رمضان سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

لـــو !

للأستاذ عباس محمود العقاد

من فكاهات الصحافة الأمريكية التى اطلعت عليها أخيراً قصة موضوعة على ما يظهر ، فحواها أن رجلاً صارماً من المطبوعين على حب الزجر والتفنيد لقى فى بعض المتاره رجلاً آخر يدخن لفيفة نفيسة ، ويبدو عليه الاستمتاع بتدخينها والارتياح إلى تقليبها بين شفتيه ؛ فاستباح لنفسه أن يخاطبه ، وجرت بينهما المحادثة التالية :

— كم لفيفة من هذا النوع تدخن فى كل يوم ؟

— نحو عشر

— وكم ثمن الواحدة منها ؟

— خمسة قروش على التقريب

— يا للعجب ! خمسون قرشاً كل يوم تذهب دخاناً فى الهواء ... فكم سنة مضت عليك وأنت تدخن ؟

— ثلاثون سنة !

إن خمسين قرشاً فى اليوم تجتمع منها فى ثلاثين سنة ثروة عظيمة ... أليس كذلك ؟

— بلى كذلك

— أفلا ترى تلك العمارة الجميلة التى على ركن الطريق ؟

— بلى أراها !

— إنك لو لم تدخن قط لتسنى لك أن تملك تلك العمارة !

قال واضع الفكاهة : وهنا عاد المسئول سائلاً وانثنى يسأل المندد الزجار :

— هل تدخن ؟

فقال الرجل متأففاً مزهواً : كلا ! ما دخنت قط ولن أدخن أبداً

فسأله مرة أخرى : وهل تملك إذن تلك العمارة ؟

قال : كلا ! ...

قال : ولكنني أنا مالكها ... !

* * *

هذه قصة فيها مجال طويل للتأمل واختلاف النظر بين حظوظ الحياة وضروب المتعة فيها

فأي الرجلين على خطأ وأيهما على صواب ؟

إن واضع القصة قد سهل لنا أن نعرف خطأ المندد الزجار ، لأنه أظهر لنا أن التدخين لم يحل بين الرجل المدخن وبين ملك العمارة التي تساوي تكاليف التدخين في ثلاثين سنة

ولكننا نفرض أن الرجل لم يكن مالكها ؛ فهل يكون حتماً لزاماً أنه من المخطئين وأن لائمه المتصلف على صواب ؟ ؟

إذا قيل نعم إنه لمن المخطئين لأنه فقد عمارة كان في وسعه أن يجدها أمامه ، فلماذا لا يقال إن العمارة كانت مفقودة في السنين الثلاثين ولم يكن موجوداً في حسه غير لذة التدخين ؟ ؟

نعم إن لذة التدخين لا تجتمع لبنة فوق لبنة ، وطبقة فوق طبقة ، وجداراً إلى جانب جدار ؛ ولكن ألا يوجد الشيء إلا إذا لمسناه لمس الجدران ؟ ألا يكون له أثر إلا إذا صدمنا في الطريق كما تصدمنا العمارات ؟ ألا يجوز أن لحظات التدخين قد هيأت لصاحبها فرص ارتياح وثمرات حساناً من ثمرات الحياة ؟ ألا يجوز أنها أرضته حيث كان وشيكاً أن يغضب ؟ وأسلمت آراءه حيث كانت وشيكة أن تختلط وتتعقد ؟ وشجعته على العمل حيث كان وشيكاً أن يتهاون ويتراجع ؟ ألا تحسب هذه اللحظات في ثلاثين سنة لأنها لا تقاس بالمتر ولا ترصد بالأرقام ؟ ؟

تلك لعنة النقود المسكوكة ، وذلك مدى تأثيرها في قواعد التفكير وفي أصول النظر إلى الأشياء

فالنقود المسكوكة من المخترعات التي علمت الناس نمطاً من الفكر لم يكن مطبوعاً ولم يكن من الضروري أن يفكروا على مثاله وينظروا إلى الأمور بمنظاره لولا اختراع النقود !

وكثير من الأشياء كانت تكون لها في تقويم الناس قيمة كبرى لولا أنهم تعودوا أن يُقَوِّموا كل شيء بعدد القطع من الذهب والفضة

بل كثير من الأشياء كانت تبطل قيمته الشائعة وكان يبطل الصراع عليه والتناحر حوله لولا اختراع النقد وشيوع التقويم على حسابه

فقلَّ أن يعرف الناس اليوم قيمة لشيء لا يتحول إلى كذا من الدنانير وكذا من الدراهم

ومع هذا كم في الدنيا من قيم غاليات لا تتحول إلى نقد ولا تباع بالنقد ، وليس لها في سوق النقد حساب ؟

إن لذة التدخين محسوسة ، فالذي ينكرها يسهل على المدخنين أن يعرفوا خطأه أو يعرفوا الناس بخطئه ولو ببعض التعريف

ولكن اللذات التي لا يحسها المنكرون كثيرات ، وهي لو أمكن تحويلها إلى ذهب وفضة لملأت الخزائن وأدارت حركة المصارف سنوات

فواحدة من اثنتين : إما أن تتحول ذهباً وفضة لنصونها عن البخس والنكران ، وإما أن تعرف خطأ الحساب الذي يدار على الذهب والفضة في تقويم قيم الحياة . ويومئذ يربح الناس خيراً كثيراً ويستريحون من عناء كثير ، لأنهم لا يعرضون عن لذات نفسية أو فكرية كل ذنبها أنها لا توزن بالدرهم والمثقال ، ولا يتناحرون على قُنية هي في ظاهر الأمر ملك وفي باطنه حرمان

واضع القصة أرانا أن المدخن كان هو مالك العمارة ، وأن التدخين لم يفوِّت عليه ملكها ؛ ولكنَّ واضع القصة كان يستطيع أن يخطو وراء ذلك خطوة فيقول لنا إن الرجل لم يكن ليملك تلك العمارة لولا تدخينة أو تدخينات زينت له رأياً من الآراء أو صفقة من الصفقات ، فكانت العمارة بعض هذه الثمرات

وأقول هذا ولست أدخن الآن ، ولا أنا مؤمن بضرورة التدخين لمن يفكرون

بل أقول هذا وكنت أدخن أربعين لفيفة في اليوم زمناً من الأزمان ، فلا أذكر أنني أشعلت لفيفة وأنا أكتب لأستعين بها على الكتابة ، وربما أطفأتها لأكتب أو اقرأ أو أقلب الرأي في مسألة من المسائل ، فليس من تجاربي أن التدخين والتفكير متلازمان ، وكل ما أعنيه أن السرور الذي يشعر به المدخن ينبغي أن يحسب وإن لم يتمثل في صورة الحجارة والحجرات ، وهكذا ينبغي أن يحسب كل سرور

كذلك لا دخل هنا للأخلاق والموازين الأدبية في صواب التقويم والتقدير ؛ فإن صاحب العمارة قد يملكها بمال مكسوب من السحت والربا الفاحش ، ثم لا يقدح ذلك في قيمة العمارة عند تقويمها بين البائعين والشراة

والسرور الذي يداخل الحس قد يرجع إلى الحرام المحظور فيدان كما يدان الحرام المحظور ، ثم لا ينفي هذا أنه سرور وليس بثم ولا عذاب

ولهذا يجب أن توضع في الميزان ثلاثون سنة في المتعة التي تذهب دخاناً في الهواء ولا تتحجر كبينات وعمارات في الطرقات .

والفارق بين هذه وتلك أن العمارة تنقل من مالك إلى مالك ولا ينقل السرور الذي يستمتع به صاحبه أو يشترى منه بمال .

وهذه تفرقة سارية في عرف السوق ؛ ولكنها ليست بسارية في عرف الحياة

فسرور الأب بابنه لا ينقل ولا يباع ، ولكنه مع هذا أنفس من نفائس الأموال

وسرور العين بالجمال لا ينقل ولا يباع ، ولكنه مع هذا ثروة تفلس الدنيا بفقدانها أيما إفلاس

ومقياس النفاسة، صعد الاقتصاديون أو هبطوا ، وصاح رجال المال أو سكتوا ، هو في نهاية الأمر مقدار ما توحيه من شعور .

فالعمارة لا تساوي حفنة من تراب إذا كانت تنتقل من يد إلى يد ولا يصطحب انتقالها بسرور بائع أو سرور شار أو سرور مستأجر

ونفَس واحد من لفيفة واحدة أنفس من جميع العمارات التي لا تترجمها شعوراً في حالة البيع أو حالة الشراء أو حالة الاستئجار ، أو في حالة النظر إليها إن كان النظر إليها باعث شعور .

أليس الاطمئنان إلى الرزق هو خير ما تقتنى من أجله العمارات ؟ فالاطمئنان إذن هو ثمن العمارة الصحيح ، ولولا أنه شعور مطلوب لما بذلت في أضخم العمارات أرخص الدريهمات .

ولكن هب مالك العمارة غير مطمئن إلى رزقه ؟ وهبه خائفاً عليها من الحريق أو خائفاً من إفلاس شركات التأمين ؟ وهبه كثير الهواجس من جراء ملكها ومنازعات المنازعين فيها ، فهي إذن فقر في حسابه وفقر في حساب كل مقتن لها يشعر في اقتنائه إياها بمثل هذا الشعور

نسي الناس هذه الحقيقة وخسروا بنسيانها ، لأن العملة سكت عقولهم بطابعها فأصبحت القيمة مرهونة بما يباع بكذا من الدراهم أو كذا من الدنانير ، وبطلت القيم النفسية التي هي الأساس وهي المرجع في تقويم متع الحياة

ولو بقيت لنا رغباتنا وآمالنا كما كانت قبل اختراع النقد واختراع المال على الإجمال لتغير وجه التاريخ وتغيرت هموم النفوس وتغيرت أسباب الحروب والخصومات وأسباب النضال على العروض والمدخرات

ولتقريب هذا المعنى تخيل أن العملة وبديلاتها ستبطل بعد أسبوع فماذا يكون ؟ إنك لتبصر في هذه الحالة من يعطي بيتاً ليشرب قدحاً من الليمون وليس بنادم ولا معدود من السفهاء

أو تخيل أن كل متعة في الحياة أصبحت لا تنال إلا بهذه العملة الشائعة فماذا يكون ؟ إنك لتبصر في هذه الحالة من يعطي تراث الأرض لينعم بشعاع من أشعة الشمس والقمر

أو تخيل أن كل نعمة روحية أو فنية قد أستطيع تحويلها بعد اليوم قروشاً وجنيهات فماذا يكون ؟ إنك لتبصر في هذه الحالة رجلاً من أصحاب القرائح يشترى دولتين أو ثلاث دول بفكرة خالدة توحي إليه

وسيأتي لا ريب يوم يثوب الناس فيه إلى تفكير طليق من أسر العملة ومن طابع المسكوكات . فيومئذ يعرفون الغنى الصحيح ويرهبون الفقر الصحيح ، لأنهم يبذلون الجهد بمقدار حقه فيدخرون كثيراً من ضائع الجهود في غير طائل ، ويأخذون حسبما يبذلون ، ثم لا يقومون الأشياء بمقدار صلاحها للانتقال من مالك إلى مالك في غير جدوى ؟ بل بمقدار صلاحها للبقاء في الخواطر والأرواح وهي شاعرة بما تستبقيه .

عباس محمود العقاد

١٠ ـ أومن بالإنســـان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

زال عهد الصمت والجمود — رسالة يبعثها سر الانسان — ضآلة لا تبعث على الاستكانة — لا تتعجلوا النتائج — موارد فياضة معطلة تنتظر الصنعة — السيد هو إنسان الصناعة — بين قيادة البقر وقيادة الفولاذ — مضى زمن التخريف فى الله وفى التخريف فى الانسان — برزخ على هوة ! — سر ظهور الدين قبل العلم — أسس خفية لحياة الاجتماع — أباطل أصلح للحياة من الحق ؟ — مم تفجر نبع الضمير؟ — حيث الأنس بالانسان .

قديماً كان كل شيء فى الطبيعة صامتاً جامداً أيام بدء ظهور الإنسان . فلم يكن يتكلم غيره هو ؛ بل كان هو أيضاً أبكم محبوس اللسان لا يتكلم إلا بمقاطع ساذجة وأصوات وجدانية ؛ وكانت وجوه الطبيعة جامدة مبهمة ، وأبوابها موصدة ...

والآن صارت الأشياء متكلمة محدثة طليقة الوجوه مفتوحة الأسرار . أنطقها الإنسان الذى علمه الله البيان فعلمه هو بدوره إياها وجرد منها حناجر تحدثه وتعيد عليه حديثه لتؤنسه فى رحلته إلى صوب مجهول ... !

ولقد زادت عجائب الكون بانضمام العجائب الإنسانية إلى العجائب الإلهية فى الطبيعة . وكان كفر الإنسان بالله ناشئاً من ذهوله عن بدائع مصنوعاته تعالى ، وكذلك صار الآن كفر الإنسان بنفسه ناشئاً عن ذهوله عن مصنوعاته هو !

ألا إن حمله على الإيمان بنفسه رسالة لا تحتاج إلى رسل يبعثهم سرُّ السماء إلى الأرض ، وإنما تحتاج إلى رسل يبعثهم سر الإنسان ووحى أعماله فى الأرض ...!

وقد ظل الله ربه يقول له وهو طفل جاهل قاصر عاجز : من هنا الطريق ... إلى الحياة والملكوت . إفعل هذا واترك هذا . كن كذا ولا تكن كذا ... حتى أدرك جادة الحياة الكبرى وبانت له تباشير المدنية المنشودة التى كان يحلم بها وبطالبها من الرسل كمعجزات . فأسرع إليها وغمرت حواسه دهشتها وأعاجيبها ، وألهاه ذلك عن التفكير فى نفسه فعاش فى ضجة ما يصنع كما تعيش دودة القز فى الشرنقة ...

وقد خلى الله بينه وبين الحياة بعد أن ترك له وصاياه فى الصحف الأولى ...

قد يقول قائل : ماذا يريد ذلك الإنسان المحدود من ضجته فى الأرض ؟ ضجة حناجره ومصانعه ومدافعه وجراراته ودباباته وطياراته وبوارجه ؟ إنه ضئيل ، وإن مسرحه ضئيل . فهو شيء صغير على سطح الأرض وهى ذرة سابحة مع ملايين اللايين من النجوم والكواكب . فاذا عساه أن يصنع حتى لو ركب الأرض نفسها وصرّف مقاليد سيرها كما يصرّف مقاليد طياراته وجراراته ؟ أليس للفناء نهايته ونهاية ما يصنع ؟

فأقول لأمثال هذا : رويدكم ... لا تتعجلوا نتائج حياة الإنسان ولا تشكوا فى أنها ستكون عظيمة أعظم مما تتصورون بعد أن رأيتم من فعله مالو رآه آباؤكم لماتوا عجباً !

إنكم تشكون فيه لأنه لم نثبت لحياته نتائج دائمة ، وعندكم أن كل أعماله مَلاهٍ وسَلَوَاتٌ فى شئون خاصة كالشئون الخاصة بأى فصيلة من فصائل الحيوان

كذلك قال الذين لا يعلمون من آبائكم مثل قولكم .

إذ لم يروا ميتاً يرجع ومفقوداً يؤوب ... !

ولكن الأمر فى حياة الإنسان وخلوده ليس كما تتوهمون أمراً متعجلاً ، وليس ماضى عمره على الأرض طويلاً . إنه ثمرة لا بد من نضجها فى زمن معلوم تظهر بعده نتائج خالدة وأسرار مخبوءة لها صلة وثيقة بالكون الطبيعى نفسه وبالروح الأكبر الذى وراء الطبيعة

وسيرى الذين يذهبون الآن أنهم بعد الموت فى دور انكشاف وظهور ، إذ لا يعقل أن يمضى هذا الخالق الصغير إلى الفناء المطلق ...

ثم أقول : ماذا تريدون أن يفعل إذاً ؟ أتريدونه ينام حالماً يدخن النارجيلة والحشيشة والأفيون كما يصنع أغلب إنسانية الشرق المضيَّعة ؟ أم تريدونه يجلس فارغاً ينتظر الموت وينشد الأشعار ولهو الأحاديث ؟

إن عليه أن يملأ هذه الأرض بالضجة والقوة التى يستطيع تسخيرها ، وأن يسلط قوى نفسه الكامنة على هذه المواد الساكنة ويثيرها أيما ثورة ليدخلها فى نطاق الحركة بعد السكون والحياة بعد الركود ... ولا عليه بعد ذلك أنه ضئيل فوق زورق ضئيل يسبح فى عَيْلم كبير ...

فلو نظر الإنسان إلى جبروت الطبيعة وهول السماء لاستصغر جهده على الأرض مهما عظم ولم يفعل فى حياته إلا ضرورات

احتياجاته . وبالطبع هذا يرده ضعيفاً مستضعفاً شقياً فريسة لغيره كما كان ؛ ولكنه إذا آمن برحابة نفسه وقوة فكره وقدرته على أن يفعل الأعاجيب ، وأنه على ضؤولة جسده يستطيع أن يحرك الجبل وينسفه بتسليط قوة طبيعية أخرى عليه . إذا كان هذا به أولى وعليه أنفع وأجدى ، وكان هذا أشرف له إذ يجعله قوة من القوى العاملة الجبارة في الحياة

إن عليه أن يصنع ويتمتع ويتفرج بما يصنع ... وربما يكون هناك عالم آخر يتفرج أيضاً بما يصنع الإنسان ويتمتع به كما نتمتع نحن بنتاج النحل ومنافع كل كائن أقل منا في الارض إدراكا واحتيالاً ...

إن الطبيعة تنازل فكره وتثيره للعمل فيها منذ أيامه الأولى ، فالطفل يبحث في محيطه ويسلط جميع حواسه على محتوياته فيراه ويلمسه ويذوقه ويتسمعه ويشمه حتى يحيط بخواصه ويثير كوامنه ويطالعها خيراً من تعطيلها وسجنها

وقد وجدنا كل ما في الطبيعة من مواردها الكبرى بسيطاً غير معقد ، فياضاً بكميات كبيرة جداً ، خاضعاً للتعقيد والتركيب والتأليف والتوزيع والتنويع ... فدلنا ذلك على أن هذه المواد إنما وضعت هكذا هائلة فياضة انتظاراً لصنعة ستتناولها بها يدٌ صَنَاعٌ

وكلما رأيت غزارة ماء الأمطار — وهو أصل الحياة — وكثرة المقادير التي تصبها الأنهار في البحار فتذهب من غير انتفاع إلا بجزء قليل جداً منها ... قلت : إن هذه الكميات الهائلة إنما أفيضت لا لإخصاب السهول الحافة بها فقط ، والتي تصل إليها مياهها في سهولة ويسر ... وإنما أفيضت لإخصاب هذه الأراضي البور من الصحارى والسهوب الظمأى المقيم ...

وكلما رأيت مناجم الأرض تمتلئ بالمعادن والركاز المعطلة وهي ذات النفع العظيم والإمتاع الدائم ، قلت : هنا مواد ظلت الطبيعة تحفظها في صدرها حتى أتى يوم بعثها على يد من عرف أسرار الانتفاع بها في زمن نمو علوم الآليات والكهرباء

وكلما رأيت أغلب مناطق الأرض لا تزال خالية من السكان أو غير متشبعة بهم... قلت : هذه مساكن احتياطية لأقوام آتين ستلجئهم ضرورات الزحام إلى سكناها وتعميرها وتمديل مهودها؟ وأجوائها وإخصاب بقاعها ...

وكلما رأيت البحار السبعة وما فيها من عوالم وعناصر وموارد للطعام والدفء والصناعة ... قلت : هذه قُدورٌ هائلة يطبخ فيها مستقبل مجهول لهذا المخلوق ...

فهذه المقادير العظيمة من المياه والمعادن والأراضي والغابات ظلت تفيض فيوضها بالكيل الواسع ، وتدور دوراتها وترجع من غير أن ينتفع بها أحد انتفاعاً يبرر غزارتها إلى أن أتى عصر تفتح حاجات الإنسان الصناعية والعمرانية بتفتح أسرار الطبيعة لفكره ، فإذا بهذه الموارد التي كان يظن البعض أن فيها إسرافاً وتبذيراً يبدو لعيون العلماء وأرباب الصناعات والأعمال أنها موزونة متكافئة مع نمو حاجات الإنسان واتساع افتنانه ...

* * *

هذه الحياة الصناعية البارعة المعقدة كانت هي أعظم الموحيات الآخذات نفسي إلى الإيمان بالإنسان وإلى الكشف عن قوته الابتداعية النامية المنمية . وإن بها تفرده وامتيازه بين الكائنات في إحداث الأشياء ، وفي تغلبه على غيره من الحيوانات ، بل وفي تغلب بعض أقوامه على بعض . وقد نمت قوته الصناعية نمواً عظيماً حتى بدت في هذه القوى الساحقة التي يستخدمها الآن في حربه ...

ولا شك أن إنسان الصناعة هو سيد الأرض . أما إنسان الزراعة فمهما افتن فيها وهندس واجتهد فإن حياته حياة بُدائية ، لا تعقد الفكر ولا تترك في الأعصاب أثر القوة والابتداع والسيادة . وقد صارت الزراعة الآن خاضعة إلى حد كبير للصناعة ذات تبعية لها ...

ولذلك رأينا الأمم الصناعية تسود الأمم الزراعية على رغم القلوب الطيبة والمثل العليا التي تشيع بين الزراعيين في العادة منتقلة إليهم من اعتمادهم بعد بذل جهودهم على مُنزل الغيث وباعث الخصب ... ومن طول معاشرتهم للنعاج الوديعة والبقر المطيعة والأنعام التي تعطي ولا تأخذ ، وتسام على الخسف ومع ذلك تجتر سعيدة حالمة ...!

وطبيعي أن يتغلب من يدرب أطفاله على ركوب الحيوانات الحديدية وقيادة الوحوش الفولاذية على من يدرب أطفاله على ركوب الحمير والبغال ، وقيادة الأغنام والأبقار ...

وكل ما يحدثه الإنسان في المواد يدل على اتساع مدى نفسه وامتداد خيالها ، وأخذها من محيط واسع عميق ، وامتياحها من ينبوع زاخر بالصور والأشكال والأنواع ، وقوة تعقيد فكرها

وقدرتها على إحداث نسب جديدة ، بين العناصر والمواد ... وهذا ما لا وجود له في الزراعة

ولكي تدرك ما أرمي إليه ، فكرْ في الحياة الصناعية من المسمار الصغير إلى المصنع الكبير وما بينهما ...

***

يلام الإنسان على غفلته عما صنعه هو بيديه وملأ الدنيا به كما كان يلام في العصور السالفة على غفلته عما صنع الله في الطبيعة

ولقد مضى زمن التخريف والضلال في العقيدة بالله رب الطبيعة ، لأن الحياة لا تحتمل الجهل به تعالى إلى الحد السخيف الذي كانت فيه عبادة الأصنام والأشخاص والنجوم وغيرها . ولا تحتمل أن تجرد الطبيعة منه تجريداً كالذي كان من المعطلين منكري القصد والإرادة والعناية فيها . ولفظت العقول الأديان التي تعتمد على غير العقل في إثبات حقيقة الوجود الأولى والحقائق التي تليها ؛ وعشق الناس جمال الطبيعة وصدقها ، وعرفوا من أسرار الصناعة فيها ، فبقي عليهم لتكمل عقائدهم في الحياة أن يتيقظوا دائماً لمنشئها ومدبرها ، ويتقربوا إليه بالفكر فيه وتكريم اسمه كما يتقربون على الأقل لأساطين علمائهم الذين عرفوا من علومه جانباً ضئيلاً ...

ولكن جدَّ تخريف وضلال في العقيدة بالإنسان بسبب فرض لم يثبت في نظرية النشوء والترقي ، أطلق حوله كثيراً من الاعتقادات الفاسدة . ومقاومة هذا التخريف الأخير هي أهم رسالات الدين في هذا العصر .

***

هذا الفرض جعل كثيراً من الناس لا يريدون أن يصدقوا أن بينهم وبين الله صلة محترمة أو عناية . وكأنهم يجفلون من التكريم والإحسان اللذين يقول الدين إن الله يصطنعهما في معاملة الإنسان

وهم يقولون إن حياة الإنسان بالنسبة لله تعالى حياة تافهة ضئيلة ، وإن بينهما هوة سحيقة لا عبور لها ، وأن الحياة الإنسانية على الأرض لا تقدم ولا تؤخر في سير الناموس الأعظم الذي ينتظم الكون . فسواء على الله وعلى الكون أن يضل الإنسان أو يهتدي ، أن يعف وأن يشره ... فتلك شئون خاصة به خاضعة لاعتبارات مجتمعه ، وسوف يفنى بأخلاقه وأعماله كما تفنى النمال والنحل ، وكل ما لابسته الحياة من غير رُجعي أو مصير أكمل ...

ولكن الواقع أن نجمة الإنسانية وحدها ، وتغير الأرض بها وحدها ، وتعقد الدنيا بها وحدها ، واطراد نمو الحياة المادية وانكشاف خصائصها بها وحدها ، وارتقاب غاية مجهولة منها وحدها ... هي أمور من الحق بحيث تشغلنا عن سواها وعن شبهات ضآلة الإنسان بالنسبة لله ... وهي ذاتها البرزخ الذي نعبر عليه تلك الهوة التي بيننا وبين الله !

فعند ما ينظر ناظر لظاهر مجموع الناس يخيل إليه أنه لا صلة بين قلوبهم وأفكارهم وبين السماء ، وأنهم غير مأبوه لهم من صاحب الوجود ... وحينئذ تنطلق الاعتقادات الفاسدة والتافهة بالحياة وتنطلق وراءها الغرائز الخطرة ، وتوجد « ظلمانية الكفر ! » وينظر الإنسان للانسان على أنه شيء تافه يصح سلبه واستعباده وقتله ...

ولكن عند ما ننظر للحياة الإنسانية من داخل القلب نجد النظر يخلق المنظور خلقاً آخر جليلاً ، ويشعر الناظر بأن عين الله راعية وصية على هذا المخلوق ...

فما أعظم أثر هذا في طمأنينة النفس حتى لو كان باطلاً ! إنه يرفع آمال النفس البشرية وأفكارها حتى يجعل منطق الله خالق الطبيعة الهائلة منطقها هي . مع أن الهوة بينها وبين الله سحيقة ، إذا استسلم الإنسان للعلم وحده في عبورها لن يتمكن ! إذ يجد مكانه في الوجود يكاد يكون لا شيء ... إذ الأرض ذاتها لا شيء بجوار عظمة الكون ، فما بالك بالفرد الضئيل فيها ؟

هذا يجعل للنفس ثقة وإحساساً بالعظمة ، إذ يجد به الإنسان لنفسه مكاناً ملحوظاً في الوجود حين يجعل علاقته مباشرة بصاحب الوجود ...

ومن العجائب في ظهور حياة الإنسان وتدرجها ، أن حياة التدين فيها سبقت حياة العلوم ، فبنيت حياة التعزية والثقة على الدين قبل العلم

ولو قد سبق العلمُ الدينَ إذاً لكان موقف الإنسان في الحياة موقف ابن الطريق الشريد القادر الفاجر ، الذي لم يجد أباً وأمّا يأخذ من حنانهما حناناً لنفسه ، ويعرف أن قلبيهما منبعان غزيران لصفات الإخلاص والرحمة والحب ، بل وجد نفسه مدركاً رشيداً ، ذكياً قاسياً ، على قارعة الطريق تدافعه زحمته ، يعرف جرائم الحياة وجفاءها ، وأخلاق الشوارع والأسواق ، ولا يعرف روابط الأسرة ومعاملة الأخوة والنبوة ووصايا

الأمومة ؛ فيكون موقفه فيها موقف قاطع الطريق المسلح بالأدوات والمهارة ...

* * *

علام يقوم بناء الحياة الإنسانية ؟

حين أستعرض نظام مدينة أو أمة أو امبراطورية ، فأجد ناسها يعيشون فى تفاهم وتعاطف ومبادلة منافع ، وأجد مرافقها ومبانيها وشوارعها ومصانعها ومعاهدها تقوم فى دقة وموازنة وجمال وأمانة كأنها من الطبيعة الموزونة بيد الله ... أسائل نفسى :

من الذى أقام بناء هذه الحياة الإنسانية فى تلك الأمة أو المجموعة على هذه الأوضاع العظيمة ؟ !

ومن الذى سدد جهاد أفرادها جميعاً نحو غايات مشتركة وأهداف موحدة ؟

ومن الذى أعطاها تلك الروح الاجتماعية التى تسلك فى أعمالها وآمالها مسلك الروح الواحد فى الجسم الواحد ؟

ومن الذى هذب طباعها ورققها وجملها وصقلها وسار بها شوطاً بعيداً من عيشة الوحشية والتأبد ، إلى هذه الإنسية والاجتماع ؟

ومن الذى أقام هذه الأسر والعائلات على التراحم وجمع أطفالها ورجالها على الحب ؟

إنه لا شك سر النبوات التى نبعت من القلوب الكبيرة التى كانت للانسانية فى مهد نشوئها كالأمومة الرحيمة المضحية المربية المسددة

إن هذا لا شك هو الأساس الأول الذى قامت عليه الحياة الاجتماعية وذهب بناؤها مطرداً فى العلو والسموق

فلئن غابت الآن عن الأنظار القصيرة والأفكار المشلولة ، فكما تغيب أسس الأبنية العظيمة فى باطن الأرض ، لا تُرى ولا يعرفها إلا الناظرون فى الأعماق ...

ولقد مات الرعيل الأول من الآباء والأمهات ، ولكن بقى الأبناء دليلاً متجدداً عليهم ...

* * *

ثم نسأل : أيهما أصلح للحياة ؟ أأن يعتقد الإنسان أن الله به حَفِىٌّ ، وأن يؤمن بالإنسان فيحتفل لولادته ويقوم لجنازته ويؤثره على نفسه ، ويتواضع له ويحترم دمه وعرضه ، ويعيش فى سجون الأخلاق التى تسمو بالحياة الاجتماعية ، وتقلل الخلاف والشقاق وتنمى الحياة ، وتحيط الإنسان بجو من سكينة العلم ورقة الفن ، وتسخر العلم فى خدمته وتخفيف ويلاته ، وتضع أمامه أهدافاً مرسومة ومثلاً عليا ، وفلسفة يطرد بها الوفاق ؛ وبجعل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الرجال الآباء نماذج وقمماً يتطلع إليها . . . ؟ أم أن ينظر الإنسان إلى الإنسان كما ينظر للنبات والحيوان ... فإذا ولد فكجِرْو الكلاب أو سَخْل النعاج ؛ يسخَّر ويُلعب به ، ولا عرض ولا ناموس ولا قيود ، وحياته حياة فنِّها آلىٌّ وعلمها للتدمير والمثلة ، ومُثُلُها مكيافلية . . . وإذا مات هلك وقذف به إلى ظلمة الأبد من غير رجعة أو ذكرى أو أمل فى مصير أكمل ؟ !

أما والله لو كان دين الإنسانية هذا خداعاً باطلاً ، لكان أعظم أثراً فى صلاح الحياة من ضده ولو كان الحق ! لأنه قانون الحياة الاجتماعية ، فإذا تركه الإنسان كان عليه أن يرتد إلى حياة الغابات ... وقد ارتد بعضه فعلاً الآن ... ولكنه سيعود ...

ولست أدرى : ما هو غرام بعض الناس فى أن يزعموا أنهم كشفوا تيارات واتجاهات فى الحياة تجمل الناس يعطمون الحياة الاجتماعية التى نمت مواريث علومهم وأخلاقهم فى أحضانها ؟

إن كل ما يضر حياة الجماعة ، فهو شر يميت الضمير وينزع منه الإيمان بالخير ويسلم إلى النكسة والارتداد

* * *

على أسوأ الافتراضات فى تفاهة أصل الإنسان وضآلة مكانه فى الوجود ، فتَفجُّرُ نبع الضمير فى قلبه وطواعيتُه تحت تأثيره لا بد أن يكونا بوحى وضغط من عالم أعلى ...

وهذا الروح اللطيف الذى يوجد فى القلب حين الحب ، أو حين مبادلة العلم والفكر ، أو حين تفتح القلوب بالخير ، أو حين النظر للوجود بالعين الصافية الآملة المتفائلة ، أو حين استحضار المعانى الكبيرة : كالمروءة والإيثار والتضحية الصامتة ، أو حين الإيمان العميق الرحب المشع ... هذا الروح هو مكان رصد الإنسان والأنس به والأمل فيه

فلنرصده من هناك ليكون المنظر جميلاً أخاذاً ، يبعث على التفاؤل والحب والسعى إلى الاكتمال ... اولى من أن نرصده من مكان آخر يبدو منه مطموس الجمال ، مقبوح الخصال ، منحط المكانة ، باعثاً على التشاؤم والبغض والحقد وسوء المآل !

عبد المنعم محمد خلاف

في الطريق إلى الوحدة العربية

للدكتور زكي مبارك

[نص الخطاب الذي أرسله الدكتور زكي مبارك ليلقى في مؤتمر الخريجين بأم درمان]

أخي الأستاذ رئيس مؤتمر الخريجين

إليك وإلى إخواني عندك أقدم أصدق التحيات ، ثم أذكر مع الأسف أن المنهاج الذي رُسم لحضوري وحضور الأستاذ « الزيات » لزيارة السودان لم يظفر بالتحقيق ، فقد قضى الأستاذ « الزيات » أسابيع بالمنصورة وهو مريض ، ثم منّ الله عليه بالعافية بعد فوات الوقت الذي يسمح بتأهبه لحضور مؤتمركم المرموق . أما أنا فقد صدّتني شواغل لو عرفتموها لأكرمتموني بالصفح الجميل . فلم يبق إلا أن أرسل إليكم هذا البحث ليلقيه الأستاذ « محمد حسنين مخلوف » بالنيابة عني ، أو يلقيه أديب من الخرطوم أو من أم درمان ، وسيُنشر هذا البحث في « الرسالة » مع أيام المؤتمر ، ليكون تحية جهرية تؤيد بها مصر جهادكم النبيل

فماذا أريد أن يذاع باسمي في ناديكم بأم درمان ؟

أريد أن أتحدث عن العقبات التي تعترض السائر في الطريق إلى الوحدة العربية بلا مواربة ولا تلميح ، لأني أومن بأن عندكم من الفتوّة ما يوجب الخروج على الرموز في مثل هذا الشأن الدقيق ، ولأني أفهم جيداً أنكم من طلائع الجيل الجديد ، ومن الإساءة إليكم أن يرسل إلى ناديكم كلامٌ ملفوف تُعوزه صراحة الصدق وشجاعة الإيمان

ثم أواجه الموضوع فأقول :

كثُر التحدث في هذه الأيام وقبل هذه الأيام عن « الوحدة العربية » وذلك يشهد بأنها كادت تصبح من الغايات القومية في الشرق العربي ... وهل يمكن أن تدور « فكرةٌ » على ألسنة الملايين من العرب ، بدون أن يكون لها في قلوب تلك الملايين مكان ؟

إن هذه الفكرة لم تدُر على الألسنة إلا بعد أن تأصلت في القلوب ، فماذا نصنع لوقايتها من العواصف التي تثور من حين إلى حين ؟

نترك السياسة جانباً ، السياسة الدولية ، وننظر إلى هذه الفكرة من الوجهة القومية ، فمصيرُنا بأيدينا ، والله لا يغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ، وإذا سلمت ضمائرُنا من الزيغ والانحراف فلن تستطيع أية قوة في الأرض أن تصدنا عما نريد لأنفسنا من السداد والتوفيق

والعقبة الأولى في طريق الوحدة العربية هي عقبة الجنس ، فكثيرٌ من الناس يتوهمون أن الرجل لا يكون عربياً إلا إذا كان من أصلٍ عربيّ صميم ؛ وهذا خطأ في خطأ وضلال في ضلال ، فالعربيُّ الحق هو من انطبع على لغة العرب ولو كانت أصوله من المكسيك ، ولا يجوز عندي أن ينتسب إنسانٌ إلى العرب وهو لا يعرف من أسرار لغتهم غير أوهام وظنون ، ولو قدّم الوثائق التي تثبت أنه من سلالة الرسول

العروبة لغة لا جنس . العروبة لغة لا جنس . العروبة لغة لا جنس

ولو شئت لكررت هذه العبارة ألف مرة ، بدون أن أشعر بأنها حديث معاد ؛ لأن روحي يحس كل حرف من حروفها إحساساً قوياً ، ولو كررتها ألوف المرات

وإذن فمن واجبي أن أثور على من يقسم بلادنا إلى أجناس ، وبلادنا هي جميع البلاد التي تتكلم العربية في الأقطار الأفريقية والآسيوية

فجميع أهل مصر والسودان عرب ، وسكان أفريقيا الشمالية عرب ، والفلسطينيون والسوريون واللبنانيون كلهم عرب ، والعراقيون جميعاً عرب ، والهنود الذين يتكلمون لغتنا عرب ، وأهل فارس في أصولهم عرب ، لأنهم نهضوا بلغتنا المحبوبة في أجيال طوال

والأستاذ سلامة موسى عربي ، وإن كان يخاصمني من وقت إلى وقت حول مكانة العرب في التاريخ ، بل هو سليم العروبة إلى أبعد الحدود لأنه يتجنى على العرب بلغة العرب ، وعروبته أصح عندي من عروبة من صح نسبه إلى يعرب وليس له في خدمة اللغة العربية وجود

العروبة لغة لا جنس ، فليفهم هذا دعاة الوحدة العربية ، إن كانوا صادقين

وسيأتي يوم ندعو فيه مواطنينا إلى الاندماج في الكتلة العربية ، وأريد بهم المستشرقين من أبناء الألمان والروس

والفرنسيس والإنجليز والطليان والأسبان ، فأولئك إخواننا حقاً وصدقاً ، وإليهم يرجع الفضل فى تشجيع الدراسات العربية ، وإحساسهم بالعروبة أصدق من إحساس العرب الذين غفلوا عن إدراك ماشى أسلافهم فى خدمة الأدب الرفيع

العروبة لغة لا جنس ، فليتق الله بعض الناس ، وليعتبروا بحوادث التاريخ . فماذا دوّن التاريخ ؟

دون التاريخ أن « أمبراطورية اللغة العربية » تمزقت بسبب الاعتزاز بالجنس ، وهذا الاعتزاز الطائش هو الذى خلق الشعوبية ؛ فبسببه أقسم الفردوسى لينظمن الشهنامة بدون أن يحتاج إلى لفظة عربية ، وبسببه جلا سلطان اللغة العربية عن بلاد كان لها فى دماء أبنائها مكان . وبسبب مقالة حمقاء كتبها كاتب أحمق فى فضل العرب على الأتراك أقسم أتاتورك ليهجرن الحروف العربية . وبسبب هذا الاعتزاز الطائش عاشت لغات فى المغرب والشام والعراق ، لتصد الطائشين من العرب عن القول بأن لغتهم أحسن اللغات ، وبأنهـا ستكون لغة الناس جميعاً فى « دار الخلود » كأن العرب وحدهم أبناء آدم ، وكأن من عداهم وحوش لبسوا أثواب الرجال ! !

العروبة لغة لا جنس . وهل كان جان جاك روسّو فرنسى الأصل ، وبفضل بيانه الساحر نهضت لغة الفرنسيس ؟

العروبة لغة لا جنس . وهل كان أحمد شوقى عربى الأصل وهو من طلائع النهضة الشعرية فى الأدب العربى الحديث ؟

العروبة لغـة لا جنس . وهل كان وهيب دوس عربىّ الأصل وهو أصدق من عرفت فى التغنى بأشعار العرب من قدماء ومحدَثين ؟

وهل كان مكرم عبيد عربىّ الأصل وله خطب طوال تذكّر بخطب سحبان ؟

ليتّق الله بعض الناس فى ميراث العروبة ، وليحذروا من أن يخربوا بيوتهم بأيديهم ، عن علم لا عن جهل ، وزلة العالم أبشع الزّلات

وما الموجب لأن يكون فى الدنيا عربٌ خالص ؟

لو اقتصر العرب على التزاوج فيما بينهم لبادوا وانقرضوا ، فما انطوت أمةٌ على نفسها إلا استهدفت للفناء

وهل استطاع العرب أن يسيطروا على العالم حيناً من الزمان إلا بسبب التخلص من العُنجُهيّة الجنسية ؟

إن التحرر من ربقة الجنس هو البَنْد الأول من وصية الزعيم العربى الأول ، وهو محمد بن عبدالله الذى مكّن للعرب من سيطرة عالية لم تخطر لأسلافهم الأقدمين فى بال ، وهى سيطرة روحية لن يظفروا بمثلها إلا إن تخلقوا بأخلاق ذلك الزعيم الحسيب

العربىّ الصحيح النسب إلى يعرب قليل الوجود ، وهو حين يوجد لا يكون إلا جسداً هامداً لا نفع فيه ولا غَناء ، لأن التزاوج بين الأجناس شريعة طبيعية ، ولا يخرج على تلك الشريعة إلا من كُتب عليهم الأفول

إن نبيكم صاهر أمماً لا تمت إلى العروبة بجنس ولا دين ، فهل تتوهمون أنكم أهدى منه إلى سواء السبيل ؟

اتقوا الله فى أنفسكم وفى ماضيكم ، وتمسّكوا بشمائل ذلك الرسول لتفوزوا كما فاز أسلافكم الماجدون ، واتقوا حاضركم فتناً لا يتعرض لشرها إلا الجهلاء والأغبياء

العروبة لغة لا جنس ، فافهموا هذه الحقيقة يا بنى آدم من أهل هذا الجيل

أما العقبة الثانية فى طريق الوحدة العربية ، فهى عقبة الدين ؛ فقد توهم قوم أن العروبة والإسلام شىء واحد ، وبذلك كَثُر ارتيابهم فى صحة الأخوّة العربية ، حين يتصل بها ناس من غير المسلمين .

والحق كل الحق أن العروبة والإسلام شىء واحد ، على شرط أن نفهم المراد الصحيح لهذا التعبير المريب

الإسلام هو أصدق أثر صدَر عن العرب ، ولولا الإسلام لبادت لغة العرب منذ أزمان طوال

وإذن ، فمن واجب العرب من غير المسلمين أن ينظروا إلى الإسلام بعين الرفق والعطف لأنه صوتهم وصوت آبائهم وأجدادهم فيما غبر من الأجيال ، وإن لم تأنس آذانهم بذلك الصوت الجليل بفضل تناحر المذاهب والديانات ، وهو تناحر لن يقدر على طمر ذلك الينبوع الفياض

ذلك واجب العرب من غير المسلمين ، فما واجب العرب من المسلمين ؟

واجبهم أن يفهموا أن النصرانية واليهودية ديانتان عربيتان . وهل نكون أعقل وأحكم من النبى محمد وقد نظر إليهما بعين الإعزاز والتبجيل ، ولم يحارب غير من شوهوا النصرانية واليهودية بالتزوير والتحريف ؟

للاسلام والنصرانية واليهودية مسرح واحد هو بلاد العرب ؛ وهذه الديانات هي سلطاننا الأدبي في الشرق والغرب ؛ وهي حجتنا يوم تُطلب الحجج على تفوق بعض الشعوب على بعض . ولعل هذا هو السبب في أن أكابر المسلمين في العصور الخوالي لم يفتهم أن يدونوا ما في التوراة والإنجيل من حكم وأمثال

إن من المعجزات أن تكون أعظم الديانات المسيطرة على العالم ديانات عربية الأصل ، فمن طاب له أن يغمز إحدى هذه الديانات فهو عربي مدخول ، لأنه لا يعرف أثرها في التنويه بمجد العرب في العالمين

الرأي عندي أن الروحانية العربية تطورت من حال إلى أحوال فانتقلت من الموسوية إلى العيسوية ثم إلى المحمدية . فهي قد تغيرت في الفروع ، مع الاحتفاظ بالأصول . والأصل الأصيل عندنا وعندهم هو التوحيد ، والتثليث الذي أنكره القرآن على النصارى لم يكن إلا صورة حرفية من صور الإغراق الذي أولع به بعض أنصار المسيح ، وهو إغراق ينكره النصارى المستنيرون في هذا الزمان .

إن القرآن يلاطف مخاصميه فيقول : « إنا أو إياكم لعلى هدًى أو في ضلال مُبين »

وعقيدة التثليث لم توجد بعد عدم ، فهي في الأصل عقيدة مصرية ، وعلى ذلك تكون جزءاً من ماضينا ، ونحن لن نتنكر لأجدادنا أبداً وإن قيل في عقائدهم ما قيل

ثم أثب إلى الغرض الذي أرمي إليه فأقول : إن الإسلام يحكم بالكفر الموبق على من يمس شخصية موسى أو عيسى بسوء ؛ فمتى ننتظر أن تكون شخصية محمد شخصية قدسية في البيئات المسيحية والاسرائيلية ؟ متى ؟ متى ؟ ومحمد أوصى أصحابه بأن ينظروا إلى موسى وعيسى بعيون لا ترى غير الجميل

وخلاصة القول أن اختلاف الديانات لن يعوق الأخوة العربية إذا صحت النيات ، لأنه اختلاف أراده صاحب العزة والجبروت ، وله في إيقاظ الحيوية العربية تاريخ أو تواريخ

قد يصير العرب جميعاً إلى دين واحد بعد جيل أو جيلين أو أجيال ، فليكن لهم منذ اليوم أدب واحد هو التآخي الصحيح ؛ فمن المؤكد أن المسلمين لن يسمحوا بهدم كنيسة أو كنيس إن تمّ لهم الفوز المطلق ، لأن معابد النصارى واليهود عنصر أصيل من عناصر الروحانية العربية ، ومن قال بغير ذلك فهو آثم في حق «الوحدة العربية» وهي فكرة دعا إليها نصارى الشام والعراق قبل أن يدعو إليها المسلمون ، ولذلك أسباب فصلتها قبل اليوم بإسهاب

قيل ألف مرة : « إن الدين لله والوطن للجميع » ولو تدبرتم لعرفتم أن الدين لنا أيضاً ، والله لا ينظر إلى الصور ولا إلى الأعمال ، وإنما ينظر إلى القلوب

وخلاصة الخلاصة في تحرير هذه القضية أنه يمكن للرجل أن يكون عربي اللسان والذوق والعصبية ، ولو كان من أعداء الدين ، لأن العروبة لغة وليست بجنس ولا دين ، وإن كان من المفهوم أن القرآن هو سفير اللغة العربية إلى مختلف الشعوب . ومن واجب العربي غير المسلم أن يفرح لسيرورة القرآن في المشرقين ، لأن سيرورته من أقوى الحجج في نصرة القضية العربية .

والقائلون بأن اللغة العربية لغة المسلمين لا يخدمون الإسلام بهذا القول ، وإنما يبعدون عنه أنصاراً أمدته بهم جاذبية اللغة العربية . والشواهد تنطق بأن النصارى من العرب والمستعربين أدوا للاسلام خدمات يعرف أقدارها عقلاء الرجال

في الدنيا معنًى يسمّى الدبلوماسية السياسية ، فلم لا يكون عندنا دبلوماسية إسلامية كالتي كان عند أسلافنا الأمجاد ، يوم كانت عقولهم تدعوهم إلى تألف من يخالفونهم في الدين ؟

* * *

أما العقبة الثالثة في الطريق إلى الوحدة العربية فهي اجترار حوادث التاريخ ، ولتوضيح هذه النقطة أقول :

كان أبناء العرب قد اختلفوا في أشياء مذهبية وسياسية وجنسية ، وهو اختلاف مشؤوم عاد عليهم بالوبال ، وكانت له عواقب في الأقطار المصرية والمغربية والسورية والعراقية ، ونال من قوة العروبة أضعاف ما نالت فوادح الخطوب ؛ فمن واجبنا أن نبالغ في تناسي ذلك الاختلاف إلى أن ننساه ، فإن لم نستطع فلننظر إليه بعين العقل ، ولنفهم أنه اختلاف قضت به ظروف لا يصح أن نحمل جرائرها بحال من الأحوال

كان بين الأقباط والمسلمين في مصر نزاع وقد محته الأُخوّة الوطنية ، فما الموجب لإحياء ذلك النزاع ؟ وكان بين السنة والشيعة في العراق شقاق ، وقد محته الأخوّة القومية ، فكيف يستبيح عاقل إحياء ذلك الشقاق ؟ وكان في البلاد السورية خلاف أثارته النزعات المذهبية ، وقد خمد ذلك الخلاف بفضل الأُخوة العربية ، فكيف يصح لإخواننا هناك أن يوقظوا

ذلك الخلاف ؟ وكان فى الأقطار المغربية قتال أرّثت ناره العصبيات الجنسية ، ثم أخمدته الأخوة الإسلامية ، فكيف يجوز بعث أسباب ذلك القتال ؟

إن من الجرائم المنكرة أن نرى نعيق المفسدين يتصايح من وقت إلى وقت بدون أن نقضى عليه بحزم الرجال !

يجب أن نفهم المفسدين أنهم حبائل الشيطان ، وأننا لا نجهل السر فى حرصهم على إذاعة ما يدّعون من مبادئ وآراء ؛ فهم جماعات من العاجزين عن طلب الرزق من وجهه الصحيح ، ومن كانوا كذلك فمن واجبهم نحو بطونهم أن يلبسوا ملابس الدعاة إلى الحق ، والحق منهم بَرَاء !

كل دعوة إلى الفُرقة لها سبب تعرفه أمعاء المفسدين ، والرجل الصادق فى الدين والوطنية لا يرضيه أبداً أن يثور بين قومه خلاف يصل إلى تمزيق الأواصر والصلات

ولن نستطيع رفع القواعد من بناء الوحدة العربية إلا إن ضمنّا السلامة من مكايد الذين يؤذيهم أن تزول أسباب الخلاف ، ومن الخلاف تمتلئ بطونهم الخاوية ، قاتلهم الله أنّى يؤفكون !

* * *

وهنالك عقبة رابعة هى غفلة الصحافة عن رعاية الوحدة العربية ، وفى شرح هذه النقطة أضرب بعض الأمثال :

كاتب مصرى يقول : إن مصر أفضل الأمم العربية

وكاتب سورى يقول : إن المصريين ليسوا بعرب وإنما هم فراعين

وكاتب عراقى يقول : ليس للعروبة وطن غير العراق

فأمثال هؤلاء الكتّاب يجب صلم آذانهم بدون ترفق ، لأنهم دعاة الفُرقة والشتات

وأنا أقبل أن يجرّح المصرىُّ مصر ، ولو بسوء نية ، ولكنى أرفض أن يجرّحها أحد إخوانى فى الشام أو العراق ، ولو بحسن نية ، وكذلك الحال هنالك ، فالسوريون والعراقيون يقول كلٌّ منهم فى بلده ما يشاء ، ولكنه يغضب ويثور حين يُغمز بلده فى جريدة مصرية ، ولو كان الكاتب أصدق أنصار الوحدة العربية

وفى هذا المقام أذكر أنى عاديت رجالاً من أهل لبنان لأنهم قالوا فى مصر كلاماً لا يقاس إلى بعض ما أقوله فيها من حين إلى حين

وقد اطلعت وأنا طالب فى السوربون على جريدة لبنانية تشكّك العرب فى مركز مصر الأدبى ، فخطفت تلك الجريدة ، ونقلتها مع أمتعتى من باريس إلى القاهرة ، ومن القاهرة إلى بغداد ، وقد مزقت ما مزقت من الجرائد والمجلات لأخفف العبء عن مكتبتى بعض التخفيف ، ثم ظلت تلك الجريدة فى أمان من التمزيق ، لأرد عليها بعنف حين تسمح الظروف

يقع منى هذا الحق ، مع أنى أدّعى لنفسى حرية العقل ، فكيف يكون الحال عند إخوانى فى سائر الأقطار العربية إذا تعرضت بلادهم لكلمة سوء تصل من خارج الحدود الجغرافية ؟

من المؤكد أنى لم أنفرد بهذه النزوة العقلية ، فالعراق يقبل أن تُشتم بلاده فى جريدة عراقية ، ولكنه يرفض أن تُغمز فى جريدة سورية أو مصرية . واللبنانى يجرّح وطنه من وقت إلى وقت ، ولكنه يثور على ذلك التجريح إذا صدر عن جريدة مصرية أو فلسطينية أو عراقية

هذه نقطة حساسة جداً فلنراعها أتم المراعاة فى جميع الظروف ، ولنفهم أن إخواننا فى غير مصر لهم قلوب يؤذيها التحامل ولو بالرمز والإيماء

* * *

أما العقبة الخامسة فهى انصراف أبناء العرب بعضهم عن بعض ، فى الظروف التى توجب التعاضد والتساند والمواساة ، ولو بالكلام ، وهو لا يكلفنا كثيراً ولا قليلاً من العناء

إن كلمة وجيزة تُكتب فى جريدة مصرية طبًّا لجرح تعانيه إحدى البلاد العربية يقع موقع البلسم الشافى لذلك الجرح ، فما بخلُنا بمثل تلك الكلمة ، وهى أهون ما فى الدنيا من تكاليف ؟

وقد تلطفت المجلات السورية واللبنانية والعراقية فأخرجت أعداداً خاصة فى التنويه بالثقافة المصرية ، فماذا صنعت مجلات مصر فى رد ذلك الجميل ؟ بل ماذا صنعت هذه المجلات فى التنويه بمؤتمر الخريجين فى السودان ، والسودان أخو مصر الشقيق ؟

يجب أن نرفع غشاوة الغفلة عن بعض العيون ، ليصح لمصر أن تقول إنها الدعامة الأساسية للوحدة العربية ، وهى كذلك لو أرادت ، فهل تريد هذه الأخت الظلوم ؟

٢ - كليلة ودمنة

للدكتور عبد الوهاب عزام

كتب الأستاذ عبد السلام هارون مقالات أربعا فى كتاب « كليلة ودمنة » كما نشرتُه . وقد عجلت جواب المقالة الأولى فى العدد ٤٣٦ من (الرسالة) ، ثم بدا لى أن أنتظّر فراغ الأستاذ من بحثه . فلما فرغ شغلتنى شواغل عن البدار إلى الإجابة ، فأرجو أن يقبل الأستاذ الناقد والقراء عذرى فى تأخير الإجابة التى انتظروها

وإجمال الكلام فى المقالات الثلاث أن كلام الأستاذ فيها ضروب، منها ما هو تفسير لكلمة غامضة ، أو توجيه للفظ يبدو فى السياق غريباً ؛ ومنها ما هو إجازة لوجه آخر غير الوجه الذى جرى عليه الكلام فى الكتاب . وهذا الأضرب من التفسير والتوضيح والتجويز يشكر عليها الأستاذ وأوافقه عليها . ومنها بحث فى أساليب ابن المقفع ، وهو موضوع يحتاج إلى مقدمات فى كتاب « كليلة ودمنة » لم تستوف كلها ، وللأستاذ رأيه فيه واجتهاده

وأما الضرب الذى يقتضينى الجواب ، فهو ما أخذه الناقد على كلمات أو جمل جاءت فى الكتاب وعدها غلطاً ، أو ظن غيرها أقرب منها إلى الصواب . وأنا أعرضُ على القراء آرائى فى مآخذ الأستاذ على النسق الذى أجرى عليه الكلام :

٨ — ٢٦١ : ٤ : (إن الملوك وغيرهم جُدُر أن يأتوا الخير إلى أهله) . أخذ الأستاذ على هذه الجملة أن جُدُر جمع جِدار لا جمع جدير قال : « وجمع فعيل صفة على فُعُل نادر سمع منه نذير ونذر وجديد وجدد وسديس وسدُس

والجواب أنه يجوز أن يكون الكاتب قد أجرى جديراً مجرى نذير وغيره ، والأولى مع هذا أن يتبع الكثير المعروف فيجمع جدير على جدراء

والمأخذ الثانى فى هذه الجملة أن الأستاذ ظن أن يأتوا فى الجملة بمعنى يعطون فقال : « الصواب يؤتون من آتى » . وليس هذا من الصواب فى شىء ، والمراد فى الجملة إتيان الخير بمعنى فعله . ولو غُيِّرت الجملة برأى الأستاذ إلى (يؤتوا الخير إلى أهله) ، لكان فيها مأخذان : الأول تعدية آتى بعلى وهى متعدية بنفسها كما فى القرآن : وآتوا اليتامى أموالهم ـ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ـ والثانى : أن يعدل بالجملة من أتى الخير بمعنى فعله ، وهو استعمال شائع ، إلى آتى الخير بمعنى أعطاه وهو استعمال غير معروف فى الكلام الفصيح . فعبارة الكتاب صحيحة واضحة لا يكون تغييرها إلا إفساداً لها

الضبط النحوى

عدّد الأستاذ تحت هذا العنوان مآخذ :

١ — ص ١٨ س ١١ (فيعلم سر نفسه وما يضمر عليه قلبَه) : قال وأضمر يضمر بمعنى أخفى يخفى فما يكون المعنى فى أن يخفى قلبَه عليه ؟ الصواب قلبُه بالرفع لأن القلب هو الذى يضمر الأسرار والنوايا : « والجواب أن من اليسير أن يضمن الكاتب « يضمر » معنى يطوى أو يطبق أو نحوه . وتحويل قلبه من المفعولية إلى الفاعلية يجعل معنى الجملة « يخفى

مصر تعمل ولا تتكلم ، فهى بالفعل سناد الوحدة العربية ، وهى بالفعل حصن العرب الحصين ، فكيف تبخل بكلمة تعلن بها أن أرض مصر ملكٌ ورثه العرب عن الفراعين ؟

يستطيع أى بلد أن يكفر بالعروبة حين يشاء إلا مصر ؛ فما يجوز لها أن تتخلى عن مجد بنته بأيديها فى عصور الظلمات ، حين كانت العروبة من خيالات الأوهام والظنون بعد سقوط بغداد بأيدى المغول

أما بعد فهذه كلمتى إلى مؤتمر الخريجين فى السودان ، وهى كلمة تلخص آرائى فى العقبات التى تعترض طريق الوحدة العربية ، وقد أوردتها صريحة منزهة عن الرمز والتلميح ، لأنها ستلقى على فتيان صراح هم شبان السودان ، أعزنى الله بودهم الوثيق

وهل تستطيع هذه الكلمة أن تغفر ذنوبى فى التقصير نحو ذلك القطر الشقيق ؟

ذلك جهد المقل ، وجهد المقل غير قليل ، وسأزور ناديكم بعد أسابيع ، فما يرضى الله أن أعيش بعيداً عن مصادر الوحى فى أعالى النيل

زكى مبارك

عليه قلبُه » فهل يرى الأستاذ أن هذه العبارة أسد من الأولى ؟

٢ — ١٤:٤١ (وشبهت الجرذين بالليل والنهار، وقرضهما دأبهما في إنفاد الآجال) قال: يصح أن تقرأ وقرضهما دأبهما باستمرار التشبيه الخ. والجواب أني رجحت الرفع لأن في النصب إخلالاً بنسق الجملة، بتعدية الفعل (شبهت) بالباء في المفعولين الأولين «الجرذين بالليل والنهار» وتعديته بغير حرف في المفعولين الآخرين (وقرضهما دأبهما) فالاستئناف برفع قرضهما أرجح

١٢٢ : ٤ (فأعادت ذلك عليه مراراً كلٌّ ذلك لا يلتفت إلى قولها) وقال الأستاذ: ولا وجه للرفع هنا؛ والوجه كلَّ ذلك على الظرفية الزمانية ولا يصح أن يكون كل مبتدأ. وذلك لأن الضمير العائد عليها محذوف تقديره (فيه)، والبصريون يمنعون حذف الضمير العائد على لفظ كل إذا كان مبتدأ. ولذلك حكموا بشذوذ قراءة ابن عامر (وكلٌّ وعد الله الحسنى)

وليست الظرفية هنا حتما، بل يجوز أن يكون المعنى: كل ذلك القول لا يلتفت إليه، فالإشارة للقول لا للزمان. وقد وضع الكاتب الإسم الظاهر موضع الضمير فقال: (إلى قولها) بدل (إليه) والجملة على الوجهين ليست من الأساليب العربية المختارة

ص ١٧٩ : ٢ (ولم أذكر ما ذكرت ألا أكون أعرف منك الكرم والسعة في الخلق) قال: الوجه إلا لكوني أعرف منك. وأقول ليس هذا وجهاً. فإن المعنى: لم أذكر ما ذكرت جهلاً بكرمك. فهو اعتذار عن الكلام السابق الذي يشعر بأن الضيف يشك في كرم القرد. ويؤيد هذا أن بعد هذه الجملة: (ولكن أحببت أن تزورني في منزلي) وهو استدراك حسن في الجملة التي أثبتناها في الكتاب، وهو إثبات بعد نفي: لم أجهل كرمك ولكني أحببت، ولا يحسن هذا الاستدراك إذا أجرينا الكلام على الوجه الذي رآه الأستاذ فجعلناه: (ولم أذكر ما ذكرت إلا لكوني أعرف منك الكرم ولكن أحببت الخ) والتأمل في سياق الكلام يبين أن لا وجه إلا ما جاء في متن الكتاب

١٩٩ : ٣ (لم تدر أيهما تأخذ) قال: والصواب أيَّهما بالنصب. وصدق، فالنصب أقر وأرجح وإن يكن للرفع وجه فما قصدته

في تحقيق النص

أورد الأستاذ تحت هذا العنوان مآخذ:

ص ٢٦ س ١٠ : (مثل الحراث الذي يثير الأرض ويعمرها ابتغاء الزرع لا العشب). قال: (فما وجه المهارة في طلب الزرع؟ الصواب يغمرها أي بالماء). وأقول: (إن الزرع ضرب من عمارة الأرض لا ريب). وما أحسب الكاتب إلا حاكي الآية القرآنية: (وأثاروا الأرض وعمروها). ولا يعبّر عن سقي الأرض بغمرها؛ فكلمة يغمرها بعيدة من سياق الكلام هنا

ص ٣٨ س ٣ : في الحديث عن الجنين: (منوط قمع سرّته إلى مريء بأمعائها). قال الناقد: وهو كلام متهالك مضطرب؛ فما العلاقة بين سرة الجنين وأمعاء الأم؟ إلى أن قال: (أما كلمة مريء فعجيبة أيضاً). وانتهى إلى أن صواب الجملة: (منوط بمِعىً من سرته إلى صفاق رحمها)

إن كان الأستاذ يريد أن يغلّط الكاتب الذي كتب باب برزويه فليجادله في التشريح كما يشاء؛ وإن كان يريد أن في الكتاب تحريفاً لم نهتد إلى صوابه فلست أرى رأيه. عبارة الكتاب: (منوط قمع سرّته إلى مريء بأمعائها يمص به من طعامها وشرابها وبذلك يعيش ويحيا) وظاهر أن الكاتب يرى أن الجنين يصل بين سرته وأمعاء أمه مريء أي مجرى للطعام كالمريء الذي بين حلق الإنسان ومعدته؛ وأنه يتغذى من طعامها بهذه الصلة. فالكلام بيّن معرب عن مراد الكاتب صواباً أم خطأ. وفي نسخة شيخو (منوط من سرته إلى سرة أمه وسلك السرة يمص من طعامها وشرابها) وفي نسخة طبارة (منوط بمعى من سرته إلى سرة أمه ومن ذلك المعى يمص ويقتبس الطعام) فالفرق بين نسختنا وهاتين النسختين أن سرة الجنين تفضي بهذا المعى أو المريء إلى سرة الأم أو أمعائها. وعبارة الطعام والشراب تدل على أن الاتصال بواسطة سرة الأم أو بغير واسطتها ينتهي إلى الأمعاء، وهذا الذي تدل عليه عبارة نسختنا. وأما فرض الأستاذ أن أصل العبارة (منوط بمعى من سرته

إلى مراق دمها) فندع الكلام فى صحته للأطباء . ومهما يكن رأى الأطباء فيه فان يجيز الأدباء الأمناء على نشر الكتب أن يحولوا نص الكتاب إلى العبارة التى يقترحها الأستاذ مع بعدها عما فى النسخ كلها . ولو أبحت لنفسى التصرف فى متن الكتاب لما تركت به عبارة تقبل اعتراض النقاد

٦١٤ (وأصبح الرضا مجهوداً مفقوداً) يرى الأستاذ أن كلمة مجهود محرفة عن مجهول ويستشهد بالنسخ الأخرى، وله الحق؛ فكلمة مجهول أقرب إلى ظن القارئ من كلمة مجهود؛ ولكنى لم أستحسن تغيير الكلمة لسببين: الأول أن مجهوداً تفيد معنى فى الجملة غير الذى تفيده كلمة مفقوداً، وأن كلمتى مجهول ومفقود تؤولان إلى معنى واحد . والثانى أن الكاتب فى هذا الفصل وصف الأمور المعنوية بأوصاف تجعل القارئ لا يستغرب أن يوصف الرضا بأنه مجهود كما قال : وكأن القدر أصبح مستيقظاً والوفاء نائماً ، وكأن الكذب أصبح غضاً والصدق قاحلاً ، وكأن الحق ولّى عاراً والإنصاف بائساً الخ

٧٠٤٤ (كالكحل الذى لا يؤخذ منه إلا مثل الغبار) قال صوابه إلا مثل غبار الميل . وأقول لا يكون هذا صواباً لأن الذى يؤخذ من الكحل ليس غباراً ولكنه يشبه الغبار . وإذا قلنا مثل غبار الميل فقد جعلنا ما على الميل غباراً ، والغرض أن يشبه بالغبار ، ثم جعلنا ما يؤخذ من الكحل مثل غبار الميل وهو غبار الميل نفسه فكلمة مثل لغو . والظاهر أن النسخ الأخرى زادت كلمة الميل توضيحاً للعبارة لأن الكحل يؤخذ من المكحلة بالميل . ونسخة شيخو توافق نسختنا . وفى النسخ الأخرى إلا غبار الميل . فالعبارة (مثل غبار الميل) لا توافق العقل ولا النقل

٧٥ ، ١٢ (مثل المكارى كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه)

قال الأستاذ هى فى الأصل ونسخة شيخو ونسخة بولاق : (مثل البنى كلما ... الخ) ثم أخذ على الناشر تغيير الأصل واشتد فى هذه المؤاخذة .

وأنا قد بينت الأصل فى التعليق ويكون القارئ على بينة مما فعلت ، وأما حكمة التغيير التى سأل عنها الأستاذ فيدركها من تأمل فعرف المشبه فى هذه الجملة وتبين أنه لا يليق أن يجمع بين طرفى التشبيه هذين فى كتاب كهذا الكتاب ينشر فى مثل هذه الأحوال .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام



من أخـــــلاقنا !

للأستاذ على الطنطاوى

أعرف رجلاً أنعم الله عليه بسعة المال، وفطره على صدق الود وبسط اليد، فأباح إخوانه ماله، يغترفون منه اغترافاً، ويأخذون منه علاً ونهلاً، قرضاً حسناً لا يطالبون برده، وهدية لا يسألون المقابلة بمثلها، وهبة لا يُرتقب منهم عوض عنها، ولا يسمعون كلمة منّ أو تذكير بها. وفتّح لهؤلاء (الإخوان) — وما كان أكثرهم — داره، وأفرد لهم جناحاً فيها لا يدخله أحد من حرمه وأهله، وأقام عليهم خادماً وطاهياً، وانقطع فيه لاستقبالهم قادمين بالبشاشة والترحيب، وإيناسهم مقيمين وخدمتهم، وتوديعهم راحلين مشيعاً إياهم بالكرامة، شاكرهم على (تفضلهم) بالزيارة، سائلهم (التكرم) بالعودة...

ولبث هذا الرجل على ذلك حتى أضاع ماله كله، فباع الدار وأثاثها، وغدا فقيراً يحتاج إلى (الورقة السورية)، فلا يجد في كل أولئك (الإخوان) من يدفعها إليه، لا وفاء دين، ولا مقابل هدية، ولا عوضاً من هبة، ولا قرضاً حسناً إلى أيام السعة، اللهم إلا بربا، ولا يرضى المرابون أن يقرضوا مفلساً...

***

ولعلّ الرجل أخطأ حين عمد إلى هذا (الكرم الجاهلى) فأخذ به، وترك التأدب بأدب القرآن الذى يقول: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط، فتقعد ملوماً محسوراً)؛ والذى جعل المبذرين إخوان الشياطين. ولعله لقى جزاءه... فما سقت القصة للحكم عليه، وإنما قصصتها لأنها ذكرتنى بطائفة «من أخلاقنا»، هى كالداء فى جسم الأمة، لا يجمل بالكتّاب وحملة الأقلام السكوت عنها والرضا بها، وهم أطباؤها وأساتها، وعندهم دواؤها

ذكرتنى بما نكاد نراه كل يوم من الحوادث وما يكاد يعرف له كل قارئ شبيهاً ومثيلاً، حين يأتيك الرجل من أصدقائك أو جيرانك متذللاً متواضعاً، مظهراً للتقى والأمانة، يسألك أن تقرضه مالاً قد تكون أنت فى حاجة إليه فى يومك أو غدك ويذكرك الكرم والثواب؛ وربما استعان عليك بمن لا ترد طلبه عندك فتعطيه ما يريد، تضعه فى كفه خالياً به، تستحى أن تشهد عليه شاهداً، أو تأخذ به كتاباً، مع أن الله أمر بكتابة الدين إلى الأجل المسمى أمر ندب واستحباب، لا أمر إيجاب وافتراض، فيأخذه منك ويذهب شاكراً فضلك، مثنياً عليك ثناء يخجلك ويضايقك؛ ثم لا تراه بعد ذلك ولا تبصر له وجهاً فتفتش عنه لتسأله رد المال وقد انقضت مدة الدين، وتجددت حاجتك إليه، فيروغ منك، وينأى عنك... فتطرق بابه، فيقال لك هو غائب عن الدار، فتعود إليه فى الصباح فيقال هو نائم، فترجع بعد ساعة فيقال خرج... فتبتغى إليه الوسائل وتستشفع إليه بالأصدقاء... فيلقاك شامخ الأنف مصعّراً خده، يقول: (يا أخى، أزعجتنا بهذا الدين... ما هذا الإلحاح الغريب؟ أتخاف أن آكله...!) وينتهرك وأنت تداريه... ثم إن كان (رجلاً طيباً) دفع إليك الدين، ولكن قرشاً بعد قرش، و(ورقة) بعد (ورقة)، فتريق فى استيفاء دينك ماء وجهك، وتنفق فيه الثمين من وقتك، ثم لا تنتفع منه بشىء. وإن لم يكن (صاحب ذمة) أكل الدين كله، وصرخ فيك حينما لقيك: (ما لك عندى شىء. اشتك للمحاكم!)، وهو يعلم أنه لا سند فى يدك، ولا بينة لك عليه... وهبك أخذت منه كتاباً بدينك، أفتصبر على طول المحاكمة ومتابعتها وتأجيلها وتسويفها، و(رسومها ومصارفها)... إن ضياع المال أهون من إقامة الدعوى به[1]

ومثل هؤلاء المقترضين (الأفاضل) مستعيرو الكتب، أولئك الذين تركوا فى قلبى غصصاً حلفت بعدها بموثقات الأيمان أنى لا أعير أحداً كتاباً. ولم أنج مع ذلك منهم، ولم يردّ لى

(١) ولو سألتنى دليلا لنبأتك أن لأسرتنا قضية فى محاكم دمشق مر عليها إلى اليوم ثلاث وثمانون سنة (فقط)، وانقضى عليها بطنان منا ومن خصومنا، وربما متنا نحن أبناء البطن الثالث ولم تنته المحاكمة!

إلى الآن كتاب (كشف الظنون) الذى نسيت من استعاره منى منذ إحدى عشرة سنة ...

ولهؤلاء المستعيرين نوادر شهدت منها العجب ، منها أن أستاذاً محترماً فى قومه جاءنى مرة يلتمس إعارته جزءاً من تفسير الخازن من خزانة كتبى ، ليراجع فيه مسألة ويرده إلىّ عاجلاً ، ففعلت ؛ وانتظرت أربع ... أربع سنوات — والله — ثم ذكرته به ؛ فغضب وقال : « لايش العجلة يا أستاذ ، لم أراجع المسألة بعد ... » !

والذى يذكر منهم صاحب الكتاب ويتنازل فيرده إليه ، يرده مخلوع الجلد ، ممزق الأوصال . وأنكى منه المستعير المحقق الدقيق الذى يرى فى الكتاب موطناً يحتاج إلى تعليق ، فيكتب التعليقة التى يفتح الله بها عليه على هامش كتابك بالحبر الصينى الذى لا يمحى ولا يكشط ، ويذيّلها باسمه الكريم ! !

وشر من هؤلاء جميعاً الثقيل الذى يتظرف ويتخفف ، فيرى أن من الظرف سرقة الكتب ، فإذا زارك وتركته فى المكتبة وخرجت لتأتيه بالقهوة أو الشاى أخذ كتاباً فدسّه تحت إبطه ، أو وضعه فى جيبه ثم ذهب به وأنت لا تدرى ...

***

وربما كان هذا المدين الماطل ، وذلك الذى يأكل الدين وينكره ، والذى يستعير الكتاب ويمسكه ، ربما كانوا عند العامة من أقطاب الوقت وأولياء الله الكبار ؛ ذلك لأن الناس جهلوا حقيقة التقى وبدلوا معناه ، فكان التقى فى صدر الإسلام هو الذى يتقى المحارم والمظالم ما ظهر منها وما بطن ، ولا يدخل جوفه ولا جيبه إلا طيباً حلالاً ، ويفر من مواطن الشبهات ، ولا يطلب المال إلا لإمساك الرمق ونيل القوام . والعيش عيش القناعة والرضا ، ولا يأخذه إلا من حلّه . ولم يكن الرجل ليشهد للرجل بالتقوى إلا إن صحبه فى سفره ، أو عامله فى مال ؛ فصار التقى اليوم من يكبّر عمته ، ويطيل لحيته ، ويوسع كمه ، ولا تفارق يده سبحته ، ولا يقف لسانه عن ذكر ؛ ومن يتوقر ويطيل المكث فى المساجد . وهذا كله حسن لا اعتراض عليه ، غير أن حسنه ينقلب قبحاً أبشع القبح إذا اتخذه صاحبه أحبولة يصطاد بها الدنيا ، كذلك الذى كان وصياً على أيتام ضعاف لا يملكون حيلة ، اغتر أولهم بلحيته وسبحته فوصى بهم إليه ، فجرعهم كؤوس الذلة والجوع ، ونشأهم فى الأزقة نشأة اللصوص ، وأكل أموالهم وهو يقرأ كل يوم بصوته الجميل : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) ، وهو مع ذلك لا ينقطع عن الأذكار وحلقاتها ، ويجهر بالبكاء إذا سمع الموعظة ... وينكر أشد الإنكار على من يهمل السنن فيشرب بشماله أو يحلق لحيته ، والناس يتبركون بلثم يده .

فكيف السبيل إلى إفهام هؤلاء الناس ما هى حقيقة التقى كيلا يعظموا اللص ويجعلوه ولياً مباركاً ، ولا يغتروا بالصلاح المجانى الذى لا يكلف صاحبه مالاً بل يجمع به المال ، ويعلموا أن الله الذى وضع فى نفوس الشباب شهوة الجسد وضع فى نفوس (هؤلاء) المشايخ (لست أعنى المشايخ كلهم) شهوة المال ، وإنه لا فضل لأحدها على صاحبه ؛ وأن الشيخ التقى هو الذى لا يقيم للمال وزناً ، ولا عبرة بغضه البصر عن النساء واتباعه سبيل العفاف ؛ وأن الشاب الصالح هو الذى لا تغلبه على نفسه تلك الشهوة ولا عبرة ببذله المال ...

***

لقد انحدرت أخلاقنا حتى صار الشاب منا حين يخوض خضم الحياة ، ويرى الاختلاف بين ما علموه من الأخلاق فى المدرسة ، وما تواضع عليه الناس فى الحياة ، يقف حائراً مدهوشاً لا يدرى ما يأخذ وما يدع ؛ فلا هو يرتضى لنفسه التفريط فى أخلاقه : صدقه وأمانته وعزة نفسه ، ولا هو يرتضى الحرمان من المتع واللذائذ والمناصب العالية والمرتبات الكبيرة يناله جزاء تمسكه بما علّموه من الأخلاق . حدثنى صديق لى أنه انتسب فى شبابه إلى الشرطة ، فجعلوه رئيس مصلحة السير فى بلدة من بلاد الشام ، وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة أو أوفى من ذلك ، وكان مقره فى (مخفر) فى ظاهر البلد ، فرعليه رتل من السيارات فيه حجاج أيبون ، وكان نظام تلك الأيام أن سيارة لا تجتاز على مخفره إلا بوثيقة وإذن ، لا أدرى ما صفتهما فقد نسيت دقائق حديثه ، ولم يكن مهم ذلك (الإذن) فوقفهم ومنعهم من المرور إلا به . (قال) فناب السائق هنيهة ثم عاد

وفي يده صرة وضعها على مكتبي فيها أربعون ريالاً مجيدياً ، وقال هؤلاء حجاج آيبون يريدون التعجيل بالوصول ... وهذه الصرة ثمن (فنجان قهوة) رجاء السماح لهم الخ ... فلما سمعت ذلك قف شعري وصحت به : أتريد أن ترشوني يا كذا وكذا ، وأمرت به فوقف ، واستلمت الهاتف (التلفون) أهتف بمدير الشرطة أرفع إليه الأمر وأنا أرى أنه سينزل به أشد الجزاء ، فإذا به يأمر بإطلاقه ، ويأذن للسيارات بأن تسافر على خلاف النظام ، وأن يبعث إليه بالمال ليجري التحقيق . (قال صديقي) وذهب المال ولم يعد ، وتركت العمل . ولو أني بقيت لطرحت عن عاتقي ثقل الأخلاق التي تجعلني غريباً بين زملائي ، وتحرمني الغنى ، وتكسبني غضب الرؤساء فلا يصيبني ترفيع ، ولا يصل إلي خير . وليست هذه القصة فريدة في بابها ، ولا هي نادرة من النوادر ، بل هي قصة كل يوم ، وهي الداء الذي يزداد ويسيطر والأساة عنه غافلون . وأين أساته وأهل السياسة مشغولون بالقتال على كراسي الحكم ، هي الدنيا لهم وهي الأخرى ، وأهل الأدب بين نائم يستمتع بشهي الأحلام ، ومستيقظ قد ألهاه هواه ، فهو يملأ الدنيا بكاء ونحيباً لأن صاحبته أمهرته بعد النجوم ولم تأته .. أو أنها قد وعدته بقبلة ثم وجدت أجمل منه أو أنفس فأعطته إياها . وأهل العلم يعيش أكثرهم على هامش الحياة لا هم له إلا مرتبه يقبضه من (دائرة الأوقاف) في مطلع كل شهر ، ثم لا تراه ولا يراه أحد إلى الشهر الذي بعده ، أو (حاشية) يقرؤها ويعيدها على من حضر مجلسه ، قراءة تبرك لا قراءة تحقيق ، فلا يرجع ولا ينتقد ولا يقابل قانوناً على قاعدة فقهية ، ولا ينظر في مشكلة من مشاكل العصر ليرى حكمها . ومن اشتغل منهم بالمسائل العامة أخذ نفسه بالاهتمام بأمر لا يقدم في الدين ولا يؤخر ، ولا يتوقف عليه إيمان ولا كفر . والشباب الناشئون لجهلهم حقائق الإسلام ، وبعد ما بينهم وبين المشايخ ، وقصر أيديهم وأفهامهم عن نيل الكتب (ذات الشروح والحواشي) قد زهدوا في كل ما هو شرقي واستهانوا به ، وعظموا ما يقابله من كل حماقة دعيت مذهباً اجتماعياً ، وكل سفسطة سميت فلسفة ، وكل كفر بالدين والعرض دعي أدباً ، وأعانهم على ذلك أن أكثر المدرسين من الدين لم يقدر لهم فهم علوم الإسلام والغوص على كنوز كتبه . ولست أطلق القول وأجنح إلى التعميم ، فإن في كل فئة من هؤلاء الطيبين المصلحين ، ولكن الكثرة على نحو ما ذكرت . فمن أين يرجى إصلاح أخلاقنا وأوضاعنا ؟

ومن أين يرجى لأخلاقنا صلاح ، ولم نتفق بعد على (الأخلاق) التي ينبغي أن نتخلق بها ، فمنا من يرى المثل الأعلى في أخلاق الجاهلية : كرم إلى حد التبذير ، وشجاعة إلى حد التهور ، كصاحبنا الذي استهلت بحديثه هذا المقال ، وعامة طائفة (الزكرت) في الشام ، (وهي أشبه بالفتوة في مصر) وأكثر البدو . ومنا من يميل إلى التخلق بأخلاق أجدادنا في القرن الماضي على ما كانت عليه بلا زيادة عليها ولا نقصان منها ، ومن يخالفهم مخالفة الضد للضد فيرى أن نقتبس الأخلاق الغربية برمتها . ويتشعب بهؤلاء الرأي فيميل كل إلى الأمة التي تعلم في مدارسها أو رحل إلى أرضها ؛ ومن يرى اقتباس الجيد النافع من كل أمة من غير أن يحدده أو يعين . ولا دواء لهذه الفوضى في رأيي ، ولا صلاح لأخلاقنا ، إلا بالرجوع إلى الإسلام الصحيح الذي جاء به سيدنا وسيد العالم محمد صلى الله عليه وسلم ، لا الإسلام الذي يفهمه الحشويون والمتاجرون بالدين ، ولا الذي تفهمه العامة . فإذا فعلنا فثمة كل خير ، ولا يكون ذلك إلا إذا شمر العلماء وحققوا المسائل ، ودرسوا المشكلات ، وألقوا عن المصنفين الأولين رداء التقديس ، واستمدوا الأحكام من موردها ثم ترجموا هذه الكتب القديمة إلى لغة العصر ، فأين من ينتدب نفسه لذلك ؟

علي الطنطاوي

الصحافة والدولة

للأستاذ زين العابدين جمعة
المحامي

« هنري ويكهام استيد الذي نترجم له هذا الفصل من كتابه (الصحافة) صحافي ثبت وكاتب علم . درس دراسة واسعة وخبر الصحافة خبرة طويلة ناجحة ؛ إلى أن كان مراسلا لصحيفة التيمس في برلين وروما وفينا ، وأن انتهى إلى رياسة تحرير هذه الصحيفة . والرجل مفكر عبقري لا يتهيب أن يرتجل رأيه ويصارح الناس به . وقد تناول الصحافة الحاضرة في كتابه من مختلف نواحيها ؛ وكان من سياق تحقيقه العلمي والعملي أن أفاض فيما للصحافة من أثر حاسم فيما ينعم به الناس من حرية القول وحرية الرأي وحرية العمل ، وما صار يتهددها على يد الحكام المستبدين . » زين العابدين

عقب أن تولى هتلر زمام الحكم في ألمانيا بأشهر قلائل سألني النصح صحافي ألماني فيما يكابده من أمر ضرورة ملحة . ولقد عرفته رجلا طيب الخلق نقي الصفحة ؛ قضى السنين الطوال وهو يخدم إحدى الصحف اليومية الألمانية المهيبة الجانب لما امتازت به من نباهة الشأن واستقلال الرأي . وكان آنئذ قد تلقى بلاغاً ينبئه أن مركزه ، وبالتالي أرزاقه ، قد صار معلقاً بما يظهر من استعداده لإبرام ذلك الميثاق الذي « ينظمه » في سلك الاشتراكية الوطنية أو جماعة النازي التي لا يرى رأيها ولا يذهب مذهبها

لقد شق عليه الأمر ومرت برأسه خواطر متشعبة : أيبرم الميثاق فيضيع على نفسه ما تنعم به من كرامة الذات واستقلال الرأي ، أو يأبى عليهم التوقيع فلا يبقى له شيء يعيش عليه إلا ما يعتز به من احترام النفس واحترام النفس وحده . ثم أخذ يسألني عما يجمل به أن يختاره من مصير

والحق أنه لم يشق على النصح مثلما شق علي من أمره . فهل كان يسعني أن أقول له : « لا توقع ، وسأرى أنه ما من ضير يصيبك أو ينتظرك في هذا السبيل ! » . نعم لقد كان مثل هذا القول سهلاً ميسوراً ؛ ولكن يا لها عندي من شجاعة رخيصة أن أقول لرجل كن مقداماً جريئاً فأحمله على أن يجازف بمقومات حياته وأسباب عيشه من غير أن أهيئ لغيرها السبيل !! والحق أني كابدت من أمر « قضيته الوجدانية » نصيباً لا يقل عما يكابده فيها من نصيب

ولعله كان بسبب ما يعوزني من شجاعة أدبية أن حاولت إعفاء نفسي من نصحه . وبدلاً من أن أتقدم برأي سألت سائلي أن يخبرني عن حقيقة مشاعره ، ثم ناقشت معه جميع الفروض والاحتمالات المرتبطة بالقبول أو المترتبة على الرفض . وإذ علمت من أمره أنه قد عقد النية على ألا يبرم الميثاق وأجمع رأيه على أن يحمل لحم حياته في كفه تاركا للمقادير أن تفعل به ما تشاء ، فقد رأيت أن ألبس في تفنيد حججه ثوب الدفاع . وعرضت له القضية من ناحية أخرى هي ما يصيب الشعب الألماني من ضرر إذا ما اجتثت من تربة الصحافة الحرة جميع الدوحات المباركة ، وحرمت الصحافة الألمانية من رجالها الأمناء النابهين . فاستحال عليهم في المستقبل القريب أو البعيد ترقب الهزة واغتنام الفرصة لمعاودة الجهاد وإصلاح العوج وتقويم السبيل . والحق أني ما حاولت أن أحمله على العبث بوجدانه إلا لأرفه عن نفسه عبء ما يشق عليها من مسئولية أدبية لما يتهدده وينتظره إذا لم يلب الدعوة ويبرم الميثاق . وكان أكبر همي أن أنقذه من نفسه فلا أدعه في ثورته النبيلة وغضبته العادلة يقرر لنفسه مصيراً عساه يلومها عليه فيما بعد

لقد عقد النية على التضحية بمادته والاحتفاظ بمثله ؛ وكانت له الخيرة بين القبول المغني والرفض المفقر . فآثر الرفض على القبول، وتأبى عليهم في عزة وأنفة إبرام العهد ، وكان قدراً مقدوراً أن فقد مركزه وضاعت أرزاقه . ومنذ ذلك الحين أخذ يضرب في الأرض هائماً على وجهه لا يلوي على شيء إلا ما عساه أن يظفر منه برزق جديد ، فلا يصيب من ملتمسه إلا ما يتبلغ به

ولقد قدر لي لعهد غير بعيد أن أجتمع به ثانية في قطر أجنبي حيث كان يبحث عن مرتزق ثابت وعيش مأمون . ويا له من شأن لا أقفى من نبله المعجب أن أراه وما تبدر لي منه بادرة آنس منها أنه ارتاب يوماً في عدالة منهجه أو أنه أصبح في شك من صواب رأيه فاتهم نفسه في صدق اختياره

يا لها من أمنية طيبة أن أراه في مستقبل العمر وقد اعتذر له الدهر عن خطيئته ووافاه الزمن بجزائه العادل ؟

إن منهج هذا الصحفي الحر ومنهج غيره من الصحفيين الذين لا يقلون عنه تضحية ولا إقداماً لما يجمل سلوك هؤلاء الصحفيين ، من غير جماعة النازي ، الذين استكانوا وأبرموا الميثاق على كره منهم ومنهجاً مهيناً قدراً . ألم يصبحوا مجرد أداة لا وزن لها ولا تقدير لجهوداتها ؟ ألم يمسوا مجرد أبواق للدعاية التي هي من صميم كيان الحكومة النازية الاستبدادية ؟ ألم يقتصر أمرهم في التحرير على أن يستخدموا ما توفر لهم من كتابة وما تهيأ لهم من مواهب في تنظيم ما يتلقونه من الدكتور « جيبلز » أو « قلم المخابرات السرية » من موضوعات يؤمرون بكتابتها ويجبرون على إذاعتها ؟ ألم يهيئوا لهم طابعاً رسمياً من ثياب عسكرية ليكون ذلك شاهداً على استرقاقهم وآية على عبوديتهم ؟ أيظل هؤلاء صحفيين بما تحمله كلمة الصحافة من معنى ، أم صاروا وقد جمدت قريحتهم وسقم وجدانهم تبعاً مستضعفين وعبدة مستعبدين ؟

إن الجواب على ذلك مدرج في مسائل أخرى أبعد مدى وهدياً إذا كانت الصحافة المقيدة المستعبدة تعتبر صحافة أصلاً بما تحمله كلمة الصحافة من معنى ، وإذا كانت الأمم الاستبدادية تفسح للصحافيين في ميادينها مكانة كتلك المكانة التي يعرفها الناس لها في الأمم الحرة

إن « الصحافة » الألمانية أداة حكومية خصت بأن تلعب الدور المنوط بها وفقاً الأسلوب النازي وتبعاً لوجهة النظر النازية في طبيعة الأمور ، وأولئك الذين يمنون بحرية الصحافة البريطانية كمظهر من مظاهر الحرية السياسية البريطانية على العموم يجب أن يفهموا ماهية هذه الأداة وعلاقتها بالنظام النازي

فلقد عرف الهر « ولهلم والدكرش » وجهة نظر النازي في الصحافة بأسلوب واضح يدعو إلى الإعجاب في مؤلف ألماني عنوانه : « واجب الصحافة السياسي » قائلاً : « إن جماع ما يسعنا أن نفهمه من واجب الصحافة السياسي هو أن نسلم تسليما مطلقاً وأن نعترف اعترافاً قاطعاً لا يحده وصف ولا يقيده شرط بما « للزعامة » من شأن في الدولة وبما هو لزام علينا من تأييد الزعيم في رواج خططه تأييداً طليقاً من أي قيد أو تحفظ .

وإن الصحافة بأوسع ما ينطوي عليه عملها السياسي من دلالة ، مباحة لأن تكون من الاستسلام والخضوع بحال يتيسر معها أن تتضافر جهود الصحف الألمانية جميعاً على تدعيم أسلوب التجديد الناضج في الحياة السياسية . وبوسع الصحافة الألمانية بما تؤديه أو تحقق في تأديته أن تؤثر تأثيراً فعالاً ذاهباً إلى أبعد مدى في كيان الحكومة الألمانية . وهنا مبعث الاهتمام في إدراك ماهية العمل السياسي للصحف . ولقد كان من بواعث الغبطة وحسن التوفيق أن اختفت اختفاء تاماً من ميدان حياتنا الاجتماعية تلك الأغراض المتشعبة والمقاصد الملتوية والغايات المتنوعة ، كما اختفت أيضاً الصحف التي لم يكن يعنيها إلا أن تخدم المقاصد والأغراض الحزبية من غير أن تلقي بالاً لما انطوى عليه العنصر الألماني « من المزايا الجنسية والقيم المعنوية » . ولقد أصبحنا الآن ونحن لا نسمح لأية صحيفة أن تجعل لها سياسة خاصة بها ، أو أن تدلي من وجهات النظر والآراء ما من شأنه أن يعرقل سبيل القيادة في الدولة . وقديماً تهيأ للنقد ميدان واسع الأرجاء بعيد المدى ، وكان بوسع الناقدين أن يجري في خاطرهم أنهم يخدمون المصلحة العامة ؛ إلا أن الرقباء الغيورين قد رأوا بثاقب فكرهم في ذلك الزمن بعينه ما يلازم أمثال تلك الآراء من الزيف والخديعة ، وما يجب أن تنتهي إليه من إفساد وضلال . لقد أصبحنا اليوم ونحن نفهم فهماً تاماً أن العهد الجديد بحاجة إلى رأس جديد ، وأن الحكومة قد وطدت العزم على أن تحتفظ في يدها بقيادة الدولة ، وعلى الصحف أن تدرك مقتضيات هذا الشأن فتعمل بكل الوسائل على تأييد خطط الحكومة

ولقد جهد الهر « ولدكرش » أن يؤثر في نفوس مواطنيه وأن يلبس آراءه ثوباً جذاباً فعالاً فاقتبس لها عبارات متنوعة من كلام الزعيم بحروفها ، وهي عبارات تلح في أن الثورة لا يسعها أن تنجح ما لم يتهيأ لها أن تطبع بطابعها الشعب بأسره ؛ فإن لزاماً على الدولة النازية أن تنشئ نشأ جديداً . وإن رسالة الصحافة هي أن تطبعهم بالطابع الحقيق » أو بعبارة هتلر : « إن الصحافة هي الوسيلة إلى تهيئة المجموع لأن يربي نفسه وأن يتثقف على ضوء ما يراه ويختطه الزعيم الذي يقود الدولة » ولقد أدلى بهذه الآراء الدكتور « جيبلز » الذي اقتبس عنه الهر « ولدكرش »

مؤيداً نظره ومستصوباً رأيه . فصرح بأن ما يسمح به من رخص للكتابة مقيد بذلك الالتزام الماثل فى أن تكون وقفاً على خدمة الدولة

والذى يخلص من أمر هذه الحقائق ومن سائر الحقائق الأخرى الملموسة هو أن جماع ما يتصور للصحافة من حرية ، بل وما يظن للفرد نفسه من حرية، قد حذف من منحى السياسة الألمانية ؛ فلم تعد الصحافة الألمانية قادرة أن تكون عنصراً من عناصر التعبير عن « الرأى العام » ، إذ فرضوا عليها أن تطبع فى رءوس الجمهور ما جرى به قضاء زعيم الدولة أن يكون موضع التفكير العام . وكم يحتاج الأمر فى بريطانيا — وفى البلاد الأخرى التى لا زالت الصحافة فيها تنعم من حريتها بمثل ما تنعم به فى انجلترا — من جهود عقلية للاحاطة بكامل ما انطوت عليه تلك الثورة من معنى ، ولإدراك أن ما للصحافة المستعبدة « الماثلة فى الدرجة والأسلوب » من قوة ، لأكثر مثولاً فيما تكف عن قوله أو لا تجترئ على نشره منه فيما يتسنى لها نشره أو يطيب لها إثباته وإذاعته

ولو أن الأمور المؤكدة قد تصبح موضع ريبة ومبعث شك إذا لم تؤيدها الحقائق الماثلة فى طبيعة الأشياء أو ينهض الدليل بحجتها ، إلا أن ما صادف الحقائق التى لها أثرها فى تهيئة عقول الأفراد وتكوين آرائهم من ضياع أو تشويه ، قد صيغ بأسلوب ماكر قوى ، من شأنه أن يعطل النقد وأن يحول دون نمو الآراء المعارضة

وبهذه الطريقة امتدت عملية « الأسلوب الواحد » الإجبارية — التى خضعت لها الصحف الألمانية منذ عام ١٩٣٣ — إلى الشعب بأسره ، وكان ذلك من طريق تشويه الصحف للحقائق كما كان ذلك من طريق ما طبعته فى رءوس قرائها فى أوامر الزعيم ونواهيه

ولقد صار من مقتضيات التعامل مع ألمانيا — كما هو الحال مع الأمم الأخرى المحكومة حكماً استبدادياً — أن أصبح رجال السياسة والصحافة فى الأمم الحرة يواجهون فى الشؤون الدولية حالة لم يسبق لها مثيل ، فقد تغير بين الدول مقياس الصلات السياسية والعقلية ، ولم يعد هناك تكافؤ فى تبادل الآراء العامة بين الأمم المحكومة حكماً استبدادياً والأمم التى لا زال الرأى فيها حراً ؛ ولم يعد هنالك أيضاً من شكوى ترفع أمام قضاء الشعب من نظام حكومته الاستبدادية

والأمر على النقيض من ذلك فى الأمم الحرة ؛ إذ بوسع صحافة الحكومات الاستبدادية ووكالاتها الأخرى الخاصة بالدعاية والنشر — بل وكثيراً ما وسعها كما أيدتها التجارب — أن تتقدم بشكواها إلى الرأى العام فى الأمم الحرة ، وأن تكون هذه الشكوى أحياناً ضد نظام ومصالح هذه الأمم الحرة ؛ إلا أن هذه المعاملة الكريمة لا يسمع لها صدى فى الأمم المحكومة حكماً استبدادياً ، حيث لا تكافؤ فى المعاملة ولا تعادل بين ما يعطى وما يؤخذ ، ولا ترقب للاقناع والقبول بالدليل القاطع أو البرهان الدافع ما دامت الحكومة وحدها فى الأمم الاستبدادية هى صاحبة الكلمة العليا والقضاء المبرم ، وما دام الشعب قد قدر له أن يجهل كل شيء من شأنه أن يهيئه لأن يتأبى على الزعيم قبول سياسته — والواقع أن الفاشية فى إيطاليا والشيوعية فى روسيا السوفياتية ، بل وحتى القيصرية فى روسيا القيصرية ، كل أولئك يعتبر موطناً للحرية إذا ما قورن بالنازية فى ألمانيا . فلم تكن الرقابة التى فرضها قيصر الروس على الصحافة ، ولم تكن الرقابة التى بسطتها عليها « البيروقراطية » الباطشة القوية ، أو الإدارة السرية ، لتبلغ من التوفيق والنجاح ما بلغته النازية من إسكات ستة الصحف الكبرى ،

وهذا النظام الاستبدادى الذى يفرض على الشعب بأسره ما تبدعه الدولة وتصبو إليه من النظر والرأى يعتبر حدثاً جديداً وأمراً ثورياً وطابعاً مشؤوماً وقالباً معكوساً فى العالم الجديد

(للكلام بقية)

زين العابدين جمعة
المحامى

حكم فى القضية رقم ٢٥٩ تسعيرة عسكرية سنة ١٩٤١ ضد قاسم عبدالجواد أبو حسن علاف بشارع الاسكندرانى بحبسه شهراً بالشغل لبيعه عدساً بثمن أعلى من التسعيرة

١٠ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثاني

يلاحظ في مصر أن القليل من المال يكفي لإعالة ذرية كثيرة[١] وأسرة كبيرة. ومهما يكن تدليل الأطفال والولوع بهم عظيماً، فهؤلاء يكنون ويظهرون لأبويهم احتراماً عميقاً خليقاً بالمدح. ويعتبر المسلمون العقوق من أعظم الخطايا. وهم يضمونه لجسامته مع الكبائر الست الأخرى، وهي الشرك بالله وقتل النفس وقذف العفيفات بالزنا وأكل أموال اليتامى والربا الفاحش والتخلف عن جهاد العدو. وقلما ترى في مصر أو في العرب من لا يطيع والديه. ويستطيع الطفل، في الطبقات الوسطى والعليا، بتقبيل يد أبيه، ثم يقف أمامه باحترام وخشوع حتى يصدر إليه أمراً أو يسمح له بالانصراف. ولكن العادة جرت أن يقبل الأب ابنه ويلاطفه. ولا يقل احترام الطفل لأمه عنه لأبيه، وكذلك احترام أفراد العائلة الآخرين بمقتضى سنهم وقرابتهم ومراكزهم. ومن هنا تنشأ في الطفل السهولة واللباقة في تصرفاته خارج الحريم، كما تنشأ فيه الطاعة والولاء اللذان كثيراً ما يمدان، من غير حق، نتيجة الحكم الاستبدادي في الشرق[٢]. ويندر أن يجلس الأبناء أو يأكلوا أو يدخنوا في حضرة الأب إلا إذا سمح لهم بذلك. وكثيراً ما يقومون أيضاً على خدمته وخدمة ضيوفه عند تناول الطعام وفي المناسبات الأخرى. ويظل الأبناء كذلك حتى بعد أن يصبحوا رجالاً. وقد دعيت مرة في شهر رمضان إلى الإفطار على مائدة تاجر مصري أعدت أمام داره. وكان يدعو كل شخص يمر بالقرب منا، مهما كان فقيراً، إلى مشاركتنا الطعام. ومع ذلك كان يقوم على خدمتنا اثنان من أولاده أكبرهما يبلغ الأربعين. وقد لاحظت أنهما لم يتناولا بالرغم من صيامهما طول اليوم غير جرعة ماء؛ فرجوت الأب أن يسمح لهما بالإفطار معنا، فأجاب رجائي في الحال؛ ولكنهما رفضا. وتتمتع الأم بأكبر قسط من عطف أطفالها ولكنها لا تتمتع مثل الأب بأكبر قسط من الاحترام. وقد رأيت خدماً كثيرين يعطون أمهاتهم ما يدخرون من أجرهم، وقلما كنت أرى من يدخر شيئاً لأبيه

ويلاحظ أن الأطفال المصريين، ما عدا أطفال الأغنياء، يظلون دائماً قذرى الشكل ممزقي الثياب، مع أنهم في محل الرغبة وموضع التفكير. وقد يشمئز الأجانب من رؤيتهم، ويسرعون في الحكم على المصريين بأنهم شعب قذر دون أن يبحثوا عن سبب آخر لذلك. ومن الملاحظ أيضاً أن أكثر الأطفال تدليلاً وعناية، أقذرهم جسماً وأحقرهم ثياباً. وليس من الغريب أن ترى السيدات الجميلات في شوارع القاهرة متشدات في مشيتهن، معطرات الجو بعطر المسك، مراعيات في زينتهن الكاملة دقة النظافة ومنتهى الرقة، ممتنيات بكحل عيونهن، مخضبات الأصابع، بينما يرافقهن طفل قد يكون الوحيد، وهو ملطخ الوجه ملوث الثياب. ومن الأشياء التي أثارت عجبي عند قدومي إلى هذا البلد مناظر من هذا القبيل؛ وقد لفتت نظرى لغرابتها وتناقضها، فأخبرت أن الأم الحانية على أطفالها تهمل هندامهم فتتركهم بلا نظافة، وتلبسهم أحقر الملابس عمداً، وعلى الأخص عند ما يرافقونها في الخارج خوفاً من شر العين. ويخشى من الحسد بصفة خاصة على الأطفال لأنهم يعتبرون نعمة عظيمة ويشتهيها الجميع. ويرجع للسبب نفسه حجز الأطفال في الحريم طويلاً؛ حتى أن البعض يلبسن الذكور من أطفالهن ملابس الإناث لأن البنت أقل تعرضاً للحسد. وأطفال الفقراء ما زالت هيئتهم بعد أكثر إهمالاً. فهم فضلاً عن قلة ملابسهم وحقارتها أو تمام عريهم قذرون إلى أقصى حد. تغشى عيونهم الأدران والذباب دون أن يكترثوا لذلك. ويعتبر المصريون أن

(١) وقد ذكر ديودور الصقلي أن قدماء المصريين كانوا يكسون أولادهم ويربونهم بأقل نفقة

(٢) إن نظام الحكومة الشرقية ليس إلا اتساعاً لنظام المنزل الأبوي (Urquhart's Spirit of the East vol. ii p. 249) (روح الشرق تأليف أوركهارت الجزء الثاني ص ٢٤٩).

غسل العين أو حتى لمسها عند ما يصيل منها الصديد الذى يجذب الذباب، مضر بها. ويؤكدون أن فقد البصر قد ينتج من كثرة لمس العين أو غسلها عند ما تصاب بهذا السيلان، غافلين عن أن الغسل إنما يلطف الألم

ويختن الولد فى سن الخامسة أو السادسة، وأحياناً بعد ذلك[1] وقبل الختان يحتفل القاهريون وغيرهم من الحضريين، إذا توفر لديهم مال، بزف الولد فى موكب يمر بالشوارع المجاورة للمنزل. وكثيراً ما يحتفلون بزفة الختان مع زفة عرس فى الوقت نفسه تقليلاً من نفقات الاحتفال. وفى الحالة الأخيرة يتقدم الموكبَ الولدُ وحاشيته. والمحتفل به يلبس أحياناً عمامة من الكشمير الأحمر، وقد يرتدى لاعتبارات أخرى ثياب أنثى؛ فيلبس اليلك والسلطة والقرص والصفا وغيرها من حلى النساء، ليجذب العين الحاسدة إليها ويلهيها عن شخصه. وتستعار هذه الملابس عادة من بعض السيدات الموسرات، وتكون من أفخر الملابس وأبهاها كما تكون كافية السعة لتلائم الولد. ويستعار كذلك حصان جميل العدة ليركبه المحتفل به. ويمسك الولد بيده اليمنى منديلاً مطرزاً مطوياً يضمه باستمرار أمام فمه ليحجب بعض وجهه اتقاء شر العين. ويتقدم المحتفل به صبي الحلاق الذى سيقوم بعملية الختان، وثلاثة من الموسيقيين أو أكثر؛ وآلاتهم لا تتعدى المزمار والطبول، كما ترى فى (شكل ٣١). فالشخص الذى يتقدم الموكب هو صبي الحلاق — كما ذكر — ويحمل (الحِمْل) وهو صندوق خشبي نصف أسطوانى ذو قوائم أربع قصيرة، يزين وجهه قطع من المرايا ومن النحاس البارز النقش، ويغطى ظهره بستار. وهذا الحمل هو شعار الحلاق. ويحمله الخادم بالطريقة المبينة فى الرسم ثم يتبعه الزمار والطبالان (وقد يتقدم بعضهم الحمل)، ثم الولد يقود جواده سائس؛ وأخيراً يمشى خلفه الكثير من القريبات والصديقات. وكثيراً ما يحتفل بختان ولدين معا وقد يحملهما حصان واحد. أما موكب العرس الذى كثيراً ما يتضمن موكب ختان كما سبق فسنتكلم عنه فى حينه. وسنذكر أيضاً وصفاً لبعض العادات الأخرى المتعلقة بالختان وبالأخص واحدة منها أقل شيوعاً وأكثر وجاهة، فى الفصل المتعلق بمختلف الأفراح والأعياد الخاصة[1]



(شكل ٣١)

وقلما يبذل الأبوان كثيراً من وقتهما أو انتباههما فى تربية الطفل تربية ذهنية، قانعين بتثبيت بعض المبادئ الدينية فى ذهنه الصغير، فإذا كانت لديهم المقدرة يبعثون به للمدرسين.

ويلقن الطفل فى سن مبكرة بقدر الإمكان الشهادتين وحب الإسلام. وأكثر أطفال الطبقات العليا والوسطى، وبعض أطفال الطبقات الدنيا يتعلمون فى الكتّاب القراءة وتلاوة القرآن أو ترتيله[2]؛ ثم يتعلمون بعد ذلك أغلب قواعد الحساب الشائعة

والكتاتيب كثيرة العدد لا فى العاصمة فحسب، بل فى كل مدينة كبيرة، كما يوجد فى كل قرية كبيرة مدرسة واحدة — على الأقل — ويلحق بكل مسجد وسبيل وحوض فى العاصمة كتّاب يتعلم فيه الأطفال بأيسر الأجور؛ إذ يتناول «الشيخ» أو «الفقى»[3] كل خميس من أب الطالب نصف قرش أو أى شىء آخر. ويتناول مدرس المدارس الملحقة بالمساجد أو بغيرها من مبانى العاصمة العامة سنوياً طربوشاً وقطعة

(١) عند الفلاحين ليس أقل من سن الثانية عشرة حتى الرابعة عشرة

(١) وهناك عادة ذكرها سترابو Strabo (ص ٨٢٤) باعتبارها سادت مصر فى عهده؛ ولا زالت شائعة فى أنحاء مصر يراعيها المسلمون والقبط جميعا إلا فى الاسكندرية وفى بعض المناطق الساحلية. وهى تسود أيضا جزيرة العرب وإن كانت أقل شيوعا. وقد لاحظ رلاند Reland الذى وصف هذه العادة وصفا ناقصا فى كتابه (فى الدين الاسلامى) ص ٧٥ نشرة ١٧١٧ (De Religione Mohammedica p. 75 ed.. 1717) وأن جالن Galen ذكرها أيضا

(٢) أنظر فصل الموسيقى

(٣) هذا اللفظ تحريف لكلمة «فقيه» التى تطلق فى مصر على الذين حذقوا الدين والفقه. أما الرجل الذى يحترف تلاوة القرآن أو يدرس تلاوة القرآن، فيسمى عادة «فقى»

من الموصلى الأبيض للعمامة وقطعة من الكتان وحذاء . كذلك يتناول كل ولد طاقية من الكتان وقطعة من نسيج القطن طولها أربعة أذرع بلدية أو خمسة ، وقد يأخذون نصف ثوب من الكتان مقداره ١٠ أو ١٢ ذراعاً بلدياً وحذاء ، وأحياناً يعطون قرشاً أو نصف قرش ؛ وهذه الخلع تؤخذ من أموال موقوفة على المدرسة وتقدم فى شهر رمضان . ولا يحضر الأولاد إلا ساعات الدرس ثم ينصرفون إلى منازلهم . ويكتب الدرس عادة على ألواح من الخشب المصبوغ بالأبيض ، تمسح بعد كل درس ويكتب عليها الدرس الجديد . وتُعلَّم الكتابة أيضاً على اللوح نفسه . والعادة أن يجلس المدرس وتلاميذه على الأرض وكل تلميذ بيده لوحه أو نسخة من القرآن ، أو جزء من أجزائه الثلاثين ، توضع على كرسى من الجريد ، وباقى الأولاد جميعهم درس القراءة أو ينشدونه بصوت واحد عال ، هازين رؤوسهم وأجسامهم هزاً لا ينقطع أماماً وخلفاً ؛ وكذلك أغلب قراء القرآن يتبعون تلك العادة ظناً أنها تساعد على التذكر ، وليتصور القارئ أى ضجة يحدثونها[١] .

وأول ما يتعلم الأولاد حروف الهجاء ، الشكل ، ثم يتعلمون القيمة العددية لكل حرف من حروف الهجاء[٢] . وقد جرت العادة قبل وصول التلميذ إلى تلك المرحلة الثالثة فى تعليمه أن يزين المدرس اللوح بالحبر الأسود والأبيض والصبغ الأخضر ، ثم يكتب حروف الهجاء بترتيبها العددى ويرسلها إلى والد التلميذ ، فيعيدها هذا إليه وعليها قرش أو قرشان . وهكذا يكرر ذلك فى مراحل التعليم اللاحقة ، وفى كل مرة يكتب الدرس التالى على اللوح . وعند ما يحفظ الولد القيمة العددية لحروف الهجاء يتمرن على قراءة الكلمات السهلة ، مثل أسماء الرجال ، ثم صفات الله التسع والتسعين ، وبعد ذلك يُحفَّظ الفاتحة فيكررها حتى يعيها تماماً ، ثم يشرع فى حفظ السور الأخرى . ويندر أن يتعلم الأولاد الكتابة إلا عند ما يخصصون لبعض الوظائف التى تتطلب معرفتها . وفى هذه الحالة يتعلمون الكتابة والحساب كذلك على يد « قبانى » ، وهو الشخص المنوط به وزن البضائع فى السوق على القبان . أما الذين يسلكون أنفسهم فى النظام الدينى أو فى أى مهنة علمية فيتبع غالبهم تعليماً منتظماً فى الجامع الأزهر

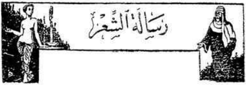
(١) والعقوبة العادية هى ضرب الطفل بجريدة من جريد النخل على بطن القدم

(٢) عند ما تستعمل حروف الهجاء الدلالة على الأعداد ترتب على ترتيب الحروف الهجائية العبرية

وأغلب معلمى الكتاتيب قليلو العلم والاطلاع . والقليل منهم من تتعدى معرفته القرآن وبعض الأناشيد والأدعية ، فيؤجرون لتلاوتها وتلاوة القرآن فى المناسبات الخاصة . وقد حدثونى أخيراً عن رجل لا يحسن القراءة والكتابة نجح فى شغل وظيفة مدرس ؛ فقد كان يحفظ القرآن كله ولذلك سهل عليه الإصغاء إلى الأطفال وهم يسمعون الدرس . أما تعليمهم الكتابة فقد كان يستخدم فيها (العريف) مدعياً ضعف النظر . وبعد شغله هذا المنصب بأيام جاءته امرأة فقيرة ليقرأ لها خطاباً جاءها من ابن لها ذهب للحج . فتظاهر الفقى بالقراءة ولكنه لم يفه بحرف واحد . فاستوجست المرأة من سكوته شراً واستنتجت من هدوئه أخباراً سيئة فقالت له : « هل أعوّت ؟ » فأجابها « نعم » وسألته : « هل أمزق ثيابى » فأجابها : « نعم » . فرجعت المسكينة إلى منزلها وأقامت هى وصاحباتها مناحة ومأتماً . ولم يطل عليها الزمن حتى عاد ولدها ، فسألته ماذا يعنى بهذا الخطاب الذى يخبرها بموته ؟ فلما شرح لها ما فى الخطاب ذهبت إلى المدرس وطلبت منه أن يوضح لها لماذا قال لها أن تصوت وتمزق ثيابها ما دام الخطاب يقرر أن ابنها بخير وأنه فى طريق العودة ؟ فأجابها غير مضطرب : « إن الله عنده علم الغيب . فمن أين لى أن أعرف أن ولدك سيعود سليما ؟ وكان خيراً لك أن تظنيه ميتاً حتى لا تنتظرى عودته ، وقد يخيب انتظارك » . فصاح بعض الجالسين مادحاً حكمته : حقاً إن « فقينا » الجديد رجل ثاقب البصر حكيم . وهكذا بين عشية وضحاها ارتفعت شهرة الرجل لغلطة غلطها[١] . وبعض الآباء يجعلون لأولادهم شيخاً يعلمهم فى المنزل . والعادة أن يعلم الأب ابنه الوضوء والصلاة وغير ذلك من الواجبات الدينية والأخلاقية على قدر إمكانه . وقد أمر الرسول (صلعم) أن يعوّد الصلاة من يبلغ السابعة ويضرب من يمتنع منهم عند العاشرة ، كما أمر أن ينام الأولاد كل وحده فى هذه السن . ومع ذلك يندر أن يقوم المصريون بواجب الصلاة قبل البلوغ .

(يتبع) عدلى طاهر نور

(١) وقد وجدت بعد ذلك قصة تكاد تشبه هذه الحادثة تماما فى كتاب ألف ليلة وليلة ، طبعة القاهرة . وهى حكاية من الحكايات الملحقة بالفصل الثامن عشر من الترجمة التى ترجمتها لذلك الكتاب . ولذلك إما أن تكون القصة التى بلغتها غير صحيحة ، وإما أن يكون الرجل المشار إليه مقلداً للقصة السابقة . والحالة الأخيرة قد تكون محتملة ؛ فقد حكى لى عدة حكايات مماثلة تستحق التصديق فضلا من أنى أعرف أن واحدة منها أمر واقعى



لياليّ القاهرة

من «ن» إلى «هـ»

للدكتور إبرهيم ناجى

طلبتِ الكتابة يا جنّتي ... وماذا تريدين أن أكتبا؟
وما فى الجوانح خافٍ عليكِ ... وقلبكِ يعلم ما غُيّبا!!
سأكتب أنكِ أنتِ الربيع ... وحسنكِ أنضر ما فى الربى
وأنتِ الحياة وأنتِ الجمال ... وفجر الشباب وحلم الصبا
أنادى باسمكِ عند الصباح ... وأطوى على ذكركِ المغربا

ابرهيم ناجى

الوردة الذابلة

للأستاذ محمود عماد

قالت وقد ألقت على وجهها ... غبرة همّ لم تكد تنجلى:
إن تذبل الوردة ظلت لها ... بقية من عطرها الأول
قلنا وطىّ النفس ما طيّها ... لو شاءت الوردة لم تذبل
لو شاءت الوردة كنا لها ... ندى إذا الأنداء لم تنزل
لو شاءت الوردة كنا لها ... شوكاً يقيها عبث الأنمل
لو شاءت الوردة كنا لها ... أرضاً مُوطّأة على جدول
لو شاءت الوردة كنا لها ... شمساً تريق الضوء فى معزل
فظلّ للوردة ما أعطيت ... من ناضر الحسن وغالى الحُلي
لكنها اختارت لها مغرساً ... بمثلها فى الورد لم يجمل
حيث الثرى يمّ وحيث الندى ... همّ وحيث الضوء لم يُرسَل
فكان حقاً أن ترى حسنها ... يزوى وألا تعجب المجتلى
وإن تعزت ببقايا الشذى ... فهو عزاء الكحل للأحول

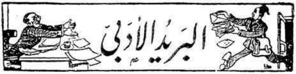
محمود عماد

أحلام الموتى

للأستاذ على شوقى

متى أنا نازلٌ نزلَ الرِّجامِ ... ومُبلِغتى الوفاةُ حِمى الحِمامِ
فأغدو ظاعناً من دار هُونٍ ... مُزَايلَها إلى دار السلام
أرانى والمَـوادىَ عائداتى ... وواهبتى أضاميمَ السّقام
كطفلٍ ملّ من ثدىٍ سقيم ... فمال عن الرضاع إلى الفطام
وما عَشق الحياةَ سوى محبٍّ ... قضى منها لُباناتِ الغرام
ومن رضىَ المقام بها فإنى ... لأمرٍ ما رغبت عن المُقام
لئن آنستُ تحت الشمس ظلماً ... فمالى لا أفرّ إلى الظلام
فيا داراً سأبرحها، سلامى ... عليكِ وإن صَفِرتِ عن السلام
ويا أرضاً غداً ستكون قبرى ... ألا أعجلتِنى قبل التمام
لعلى إن أمتْ تبكى عيونٌ ... تُروّى من مدامعها عظامى
عيون طالما أسهرت جفنى ... عليها وهى تنعم بالمنام
وتذكرنى شفاهٌ كنت حيناً ... أدين لها بمأثور الكلام
وتندبنى سُويعاتٌ تقضّت ... خضبت أكفّها بدم المدام
رأيت العيش معنى كل شر ... وهذا الناس معنى للرغام
وما هذى الحياة سوى أمانٍ ... تَداوَلُ بين أحلام الأنام

على شوقى



الى الأستاذ أحمد أمين

كنتُ أشرتُ فيما سلف من الأحاديث إلى أنى سمعت كلاماً منسوباً إلى أحد المفكرين من الأجانب فى محاضرة ألقاها الدكتور ابراهيم ناجى، ثم قرأت الكلام نفسه فى « الثقافة » بعد يومين بصورة تشهد بأنه من مبتكراتك، وكانت الأمانة العلمية توجب أن تذكر النص الذى نقلت عنه، وفقاً لقواعد « الدراسة الجامعية »

واليوم أذكر أن جريدة « الوفاء » التى تصدر فى شرق الأردن نشرت مقالاً عنوانه « عدالة العمل » بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٩٤١، وفى التاريخ نفسه نشرت مجلة الثقافة التى تصدر فى مصر مقالاً عنوانه « العدالة » وذلك توارد غريب ! !

وعند الموازنة بين المقالين تبين أن الأصل واحد، فهما منقولان عن كتاب « البشرية الكاملة » للمؤلف الأمريكى فرانك كراين

ولكن بين المقالين فرقاً بسيطاً جداً، فالأستاذ صبحى زيد الكيلانى صاحب جريدة الوفاء نص على أن المقال مترجم عن الإنجليزية بقلم صبحى جلال القطب ؛ أما الأستاذ أحمد أمين صاحب مجلة الثقافة فقد نص على أن المقالة من إنشاء أحمد أمين !

فهل لك أن تتفضل فتدلنى على وجه « العدالة » فى هذه القضية ؟ وهل لك أن تذكر أن الدنيا فيها ناس يقرأون وينقدون ما يقرأون ؟

يجب أن يفهم حضرة الأستاذ أن « الدراسة الجامعية » لا تمنح أصحابها حق انتهاب الأفكار والآراء ؛ فإن أجاب بأنه « ترجم بتصرف » فأنا أقول بأن النص على الأصل واجب ولو كانت الترجمة بتصرف

وبالنيابة عنه أعتذر لمن شكاه من فضلاء عمان، والصديق ينوب عن الصديق فى بعض الأحيان

زكى مبارك

عبر كذا . . .

اطلعت على ما كتبه الأستاذ الفاضل محمد محمود رضوان فى العدد ٤٣٢ من (الرسالة) فى نقد ما ذهبت إليه من أن استعمال الكتّاب الآن لكلمة (عَبْر) ـ مصدر عَبَره ـ ظرفاً غير صحيح[1]

(١) نشر بحثى هذا فى العدد ٤٢٤ من الرسالة

فقال الأستاذ: « قد جاءت هذه الكلمة فى شعر إسلامىّ لسواد بن قارب الكاهن، حين وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً »

ثم ساق حكاية سواد كما رواها صاحب الجمهرة، وفيها أبيات له، منها:

فشمرتُ عن ذيلى الإزار وأرقلتْ
بىَ الدعلب الوجناء عَبْر السباسب[1]

وبعد ذلك قال: « ومن ثم يرى الأستاذ الكبير أن الكلمة صحيحة كما يستعملها الكتاب على عهدنا »

فكأن الأستاذ ارتضى استعمال « عَبْر » ظرفاً أخذاً بظاهر عبارة الشاعر التى تنطبق فى صورتها على استعمالات الكتّاب لهذا العهد. وكأنه يتوهم أنها منصوبة على الظرفية « بأرْقلت »

ولكن الواقع أنها صفة ثالثة للناقة لا غير[2] ؛ فإن الشاعر فى مقام تعديد محاسن ناقته وما فيها من مزايا يقتدر بها على السرعة فى أداء مهمته، فهو يصفها بالفتاء والقوة، وبأنها قادرة على شق السباسب، تمضى بها وتجرؤ عليها

ويؤيدنى فى أن الوصفية وحدها هى الوجه الواجب أنى لم أجد لمعنى الظرفية فى « عَبْر » أثراً فيما قرأت من كتب اللغة وراجعت وبحثت، وإن كانت الكتب التى بين أيدينا لا تحوى كل شىء، بل قد فاتها كثير جداً، كما نعترف بذلك جميعاً

ثم ترقّى الأستاذ فى تفنيد مذهبى فى هذا الموضوع فقال:

(ولو أننا أردنا تخريج الكلمة على وجه صحيح لوجدنا أكثر من وجه، خلافاً لما يقوله الأستاذ. وأقرب هذه الوجوه عندى أن تكون (عَبْر) مصدراً مراداً به اسم الفاعل، فتكون حالاً مما قبلها، ويكون التقدير: « مرور قواتها عابرة شمال الهند ... الخ » و « أو جاءت إلى هنا عابرة الأطلنطى »[3]).

أقول: يكفى فى الرد على هذا أن أذكّر الأستاذ أنه من المقرر أن المصدر قد يقع حالاً « إذا كان نكرة ». فالتنكير شرط لازم، نحو: (ثم ادعُهنّ يأتينك سَعْياً) و (ينفقون أموالهم سراً) و (جاء بغتة) و (قتله صبراً) و (حضر سُرْعة)

(١) أرقلت: أسرعت. والدعلب: الفتية الشابة من النوق. والوجناء: الشديدة. وعبر السباسب: القوية على شقها وسلوكها. ويقال أيضا: عبر أسفار لرجل الجرىء عليها. والكلمة للواحد والجمع والمؤنث

(٢) أى لا كما يرى الأستاذ من أن إمكان كونها صفة الناقة إنما هو وجه آخر لإعرابها، كما فى حاشية مقاله.

(٣) تراجع أمثلتى فى العدد ٤٢٤ من الرسالة

و (أقبل ركْضاً) و (كلمته مشافهة) ... إلى غير ذلك [١] .

وقد رأيتَ أن (عَبْر) فى الأمثلة الثلاثة التى أتيتُ بها للتوضيح فى مقالى السابق معرفة بالإضافة . وكذا الحال فى جميع ما نراه من ذلك كل يوم فى الصحف والمجلات ؛ لأن استعمالها لا يكون إلا هكذا فى أساليبها .

فلا يمكن إذاً أن تعرب (عبر) حالاً . فقد بطل تخريج الأستاذ

أما المصدر المعرف فمجيئه حالاً نادر . والمسموع منه قليل جداً . وهو لا يَعْدُو أن يكون علم جنس ، كقولهم : جاءت الخيل بَدَادِ [٢] ، أو معرّفاً بأل ، نحو : أرسلها العِراك [٣] .

بقى قول الأستاذ : (والمصدر يقع فى موضع اسم الفاعل ... الخ كلمة) ، فهذا مما لسنا بسبيله . (ا . ع)

الأستاذ كرد على فى بيت المقدس

لبى الأستاذ محمد كرد على دعوة الإذاعة الفلسطينية ، فتوجه إلى القدس وذهب من توه إلى بيت صديقه أديب العربية الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

وكانت أولى محاضراته : « هل تمدنا » قرر فيها الأستاذ أن الأمم العربية قطعت شوطاً بعيداً فى المدنية منذ نصف القرن الماضى ، وتمنى لو تلقفنا من الغربيين عاداتهم وتقاليدهم فهى بالجملة خير من عاداتنا وتقاليدنا ؛ ولم ينس الأستاذ أن يذكر المرأة الشرقية وخروجها سافرة فى العصر الحديث بعد أن كانت مكبلة بسلاسل يسمونها خلاخيل ، وأنها نالت قسطها الوافر من المدنية وتشبهت بأختها الغربية بمنافسة الرجل فى مختلف ميادين الحياة .

وفى المحاضرة الثانية تكلم الأستاذ فى موضوع : « الشاميون والتاريخ » قصر حديثه على سرد أسماء المؤرخين الشاميين ومؤلفاتهم وتاريخ وفاتهم ؛ وعلل الأستاذ وفرة المؤرخين فى الشام لكونها كانت عاصمة العرب ، وفى العاصمة يتمثل ازدهار المدنية أكثر من سائر البلدان

وفى المحاضرة الثالثة حكى عن « طرائف فارس » وخصص كلامه فى مخطوط يسمى « طرائف الطرف » فكشف عن قيمته التاريخية ثم ختم كلامه بالقول : إن فى إيران مخطوطات عربية قيمة تفوق المخطوطات الموجودة فى القاهرة وفى دمشق وذكر أن فى مكتبة العلامة الإيرانى « نصر الله » خمسين ألف مجلد عربى ، ويؤكد الأستاذ أن كثيراً من أغنياء إيران يهمهم أن ألا تخلو مكتباتهم من التآليف العربية فإن ذلك يدل – فى عرفهم وتقاليدهم – على السراوة والنبل

وكان موضوع محاضرته الأخيرة : « بقية ما ترك لنا الأجداد » فافتتح كلامه بالأسف الشديد على أن فقدت المكتبة العربية كثيراً من المخطوطات الثمينة ثم قصر كلامه على التحدث عن « أبى حاتم بن حيان البستى » وذكر أنه لا يقل عن ابن ماجة فى أهمية أسانيده للحديث ، ثم أعلن أسفه بأن أحداً من المترجمين العرب لم يذكره فى تآليفه ، ولولا ياقوت الحموى لكان نُسى كما نسى كثير من العلماء . ثم رجح الأستاذ أن نسبه ينتهى إلى « إياس بن مضر » وقال إن حياة هذا العالم الجليل قد انتهى بأن قتله خليفة المسلمين لتلبسه جريمة الاشتغال بالعلوم الرياضية .

عبد القادر جنيدى

الى الكتاب

يجدُّ الردى فينا ونحن نهازله ونغفو ولا تغفو فواقاً نوازله

كنت أتحدث مساء يوم من الأسبوع الماضى عن « معركة الإصلاح الاجتماعى » مفتتحاً العام الدراسى الخامس لمدرسة الخدمة الاجتماعية ، فجال بخاطرى وأنا أعرض وجوه المعركة أن أتساءل : أين كتابنا فى مركز القيادة ، وأين هم فى صف الجنود ، وأين هم فى مجال الدعاية والإرشاد ؟ وهل وضعوا خطة وبرنامجاً لعلاج مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى ثم تهيئوا لخوض غمار المعركة حاملين علم الجهاد ، أو أنهم آثروا حياة الدعة وعيشة السكون ، والتزموا الحيدة المطلقة تلقاء هذه المعركة التى شنت فيها الآفات الاجتماعية الغارة علينا بغير رفق أو هوادة ؟

ثم ألقيت نظرة على ما طوى التاريخ من أحداث اجتماعية غيرت أوضاع الحياة ، فبصرت بأقلام الكتاب ولها السبق فى ميدان الدعاية إلى المبدأ وبث الفكرة وحفز الهمم ومناصرة التجديد والإصلاح فى نضالها مع قوى الرجعية ، وأحسست صولة القلم تسبق صولة السيف ، ورأيت مهمة التمهيد لمركة الإصلاح يضطلع بها نفر من أئمة الكتاب يشقون الطريق للجنود ويرسمون الخطط للقادة ، ورأيت صرح الإصلاح وقد استقر على دعائمه الراسخة يحيط به سياج من أقلامهم

ثم شهدت ما حشدته الأمم للاصلاح من قوى فبصرت بقوة الأقلام يصول بها الكاتب القدير فى الميدان ، ويشق ببريقها الظلام

(١) على أن ذلك ليس بمقيس على الأصح . قال السيوطى فى الهمع : وأجمع البصريون والكوفيون على أنه لا يستعمل من ذلك إلا ما استعمله العرب . ولا يقاس عليه غيره . فلا يقال : جاء زيد بكاء . وشذ المبرد فقال : يجوز القياس اه .

(٢) بداد علم جنس للتبدد ، وهو التفرق ، مبنى على الكسر كحذام

(٣) أرسلها : أى الابل . وعراكها : ازدحامها على المورد .



«أرواح شـــاردة»

تأليف الأستاذ الشاعر على محمود طه
بقلم الأديب محمد فهمى كمال

هذه «الأرواح الشاردة» فى تيه المرح والعذاب والحب، يحتفل بها شاعرنا على محمود طه فى كتابه الجديد احتفال الشاعر الهائم الذى تضطرب حياته فى خضم هذا الكون العظيم، حيث تتوارى المعالم وتتلاشى الآفاق وتغيب الشطئان. ولقد وسم نفسه فى عالم الأدب بالتيه والشرود، فهـو «ملاح تائه» يهيم إثر «أرواح شاردة»، يجد لذته ومتعته فى شروده وهيامه، حتى لكأنه أحد أولئك الشعراء البوهيميين الذى كتب عنهم «هنرى برجير»؛ فهو ممن نلتمس عندهم غذاء الروح وريّ القلب فى البيان المصطفق والخيال المنطلق والنغم المتسق!

ومن رغم الأيام أن يصدر هذا الكتاب الجديد فى زمن تصطخب فيه الآذان وتضطرب الأذهان بأنباء أفظع مجزرة بشرية تمثلها روح الشر على مسرح الوجود، بل نحن فى محنتنا هذه أحوج ما نكون إلى أمثال هذه الكتب المختلفة بالذوق الجميل والفن الرفيع، أكثر من حاجتنا إلى كتب العلم والمعرفة والحكمة والفلسفة التى لو شئنا شيئاً منها لالتمسناه فى الكتب التى نقل عنها المؤلف أو تأثر بها، وفى غيرها مما لم ينقل عنه أو يتأثر به؛ ولكنا نحب هذا المزاج البديع من فن الشاعر الثائر على محمود طه الذى عشقناه وفُتنّا به فى قصائده الفرحة وغنائياته المرحة!!

فهذا الشارد الحائر بين معالم الجمال ومفاتنه فى مصر والبندقية وبرن وروما وفرساى وانسبروك، سعيدٌ بأن يلتقى بجماعة من الشاردين الحائرين أمثال: ڤيرلين ورامبو وبودلير وشلى ودى ڤينى وموسيه وجورج سان وشو ويلز، ممن تناولهم بالدراسة، أو عرض لهم ولآثارهم عرضاً سريعاً

فأما بول ڤيرلين فحديثه ممتع، ألمّ فيه المؤلف بسيرة هذا الشاعر

الخيم على العقول والقلوب، ويدفع بها النفوس إلى المثل العليا

وهنا ألقيت نظرة على مصر، فإذا بمعركة الإصلاح خامدة، وإذا الروح المعنوية متخاذلة يعوزها القادة والخطة والجنود وقوة الإيمان، مع اتساع الميادين وفداحة الخطوب وعظم المشكلات وقلة الزاد ووعورة الطريق، تكتنفنا عوامل الانحلال التى تقربنا إلى الهوة بخطوات واسعة. وشعرت أننا نسير فى الظلام، وقد خبت الأضواء، واختفت مصابيح السماء، فصحت فى نفسى والألم يحزها: «أين كتابنا من هذا النضال؟ هل آثروا العزلة فى بروجهم العاجية، يشرفون علينا من عل، فيعبسون حيناً ويبتسمون أحياناً، ثم يقهقهون ملء أشداقهم، ثم يخلدون إلى متعتهم من الفن وروعة الخيال، يغذون بها روحهم، ويستوحون منها فيض أقلامهم؟

ألم يقض هؤلاء الكتاب فترة من سنى حياتهم الناعمة فى قرى الريف، فتثور نفوسهم لمشاهدة الحياة فيها، فيستلوا أقلامهم ليخوضوها معركة حامية فى سبيل هؤلاء التعساء الذين ضن المترفون عليهم بقسط يسير من مقومات الحياة الإنسانية الكريمة؟ ألم يستشعروا ما يحيط بهم من مآسى الحياة المصرية؟ هل فكروا فى وجوه الإصلاح ونصيب الكتاب فى الدعوة إليه والنضال فى سبيله؟ لقد حباهم الله بخيال خصب وروح اجتماعى سام ينم عنهما ما تزخر به مؤلفاتهم وبحوثهم من شذرات وخواطر، فكيف السبيل إلى استغلال هذه المواهب فى توجيه قوى الخير لمكافحة عوامل الشر؟

يخيل إلى أن أدباءنا ينعمون بأنانية منقطعة النظير، هيأتهم لأن يعيشوا لأنفسهم، وأن يفكروا حين يفكرون، ويكتبوا حين تتحرك أقلامهم، لمتعة الروح وإرضاء الخيال، دون نظر لما تقتضيهم حقوق الوطن من التزامات تحتم عليهم أن يكونوا فى مركز القيادة، وأن يتولوا مهمة الإرشاد

أين إنتاج أدبائنا مما توحى به الحرب، وما يتطلبه تنظيم الحياة الاجتماعية بعد الحرب؟ ألم يروا كيف نهض الكتاب فى البلاد الغربية يعالجون المشاكل الاجتماعية التى أوجدتها الحرب، والتى ستتمخض عنها الحرب عندما تخبو نارها، فاستخلصوا العبرة، ووصفوا العلة، ورسموا الطريق للمستقبل؟!

يجب أن يتغير وجه الحياة المصرية فى طرائق التفكير وأسس الثقافة ومعايير الإصلاح وروح التشريع، نتيجة لتلك الهزة العنيفة التى توشك أن تتداعى منها جوانب الحضارة القائمة، وأن يكون الكتاب قادة المعركة الإصلاحية التى تطالعنا كتائبـ[illegible]. فمكانهم منها فى الطليعة، ولو عرضوا أنفسهم ليكونوا أول ضحاياها.

محمد العشماوى
نائب رئيس رابطة الاصلاح الاجتماعى

الذي كان أرخم صوت صدح به الشعر الفرنسي في القرن الذي أنجب هيجو ولامارتين وموسيه وجوتيه وسنت بيف ومالارمي وليكونت دي ليل وأناتول فرانس وغيرهم من الأعلام والعباقرة الأفذاذ

ولقد تناول المؤلف في حديثه هذا أصول الفن مطوّفاً بالمصادر التي استمدت منها شاعرية فيرلين ألوانها الباهرة ، واستلهمت أنغامها الساحرة ؛ ثم تناول شخصية فيرلين بالاستقراء والتحليل ، هذه الشخصية التي قال أناتول فرانس في صاحبها : « إنه سقراطيٌّ بالفطرة أو خيرٌ من ذلك ، مخلوق خرافيٌّ ، حيوان غابة ، نصفه إنسان ، ونصفه حيوان ، نصفه وحش ضار ، ونصفه إله ، هائلٌ كقوة طبيعية غير خاضعة لشريعة ما ... »

ولقد وفق المؤلف في تفصيل ذلك كله وكان رائعاً ومتواضعاً في ترجمته لقصيدة فيرلين في الخريف ، بل إن أمانة النقل تبلغ في هذه الترجمة مبلغاً عظيماً مع الاحتفاظ بالروح الغنائي المرح الذي يفيض به شعر فيرلين

وفي عشرات الكتب والدراسات التي وضعت عن فيرلين نجد المؤلف قد ألم بالكثير من الآراء ، وقرّب هذه الشخصية العجيبة إلينا ، ولو أضاف إلى ما كتبه رأي « فرنسوا بوشيه » في علاقة فيرلين برامبو لانتهى إلى الحقيقة ولما قال إنها لا تزال موضع تحقيق النقاد والمؤرخين

أما بودلير فقد عرض المؤلف لفنه وللعوامل الموضوعية والذاتية في شاعريته أكثر مما عرض لسيرة حياته ، وإن كان لم يهمل ما رآه متصلاً أوثق الاتصال ببحثه القيم النفيس ، فقد تناول جانباً من حياة هذا الشاعر يلقي ضوءاً على المؤثرات التي عملت عملها في شذوذه وغرابة طباعه وأطواره وحماسته في عبادة شهواته ، وكان حديثه رائعاً عن نشأة بودلير ورحلته إلى جزائر الهند ، وعن أوكار الحشيش والأفيون ، وهذه الأجساد التي تنضح بشهواتها وتسترق أنفاسها من دخان العطور الشرقية المخدرة ؛ كما كان حديثه بليغاً وبديعاً عن هذه الفتاة السوداء التي نصبها بودلير إلهةً للجمال بجسدها المعتل السقيم الذي يملأ المكان أو البقع أديمه وهو يتخلع في ثوب مهلهل خلق ...

ومن الحق أن نسجل في هذا الفصل للأستاذ المؤلف قوته البيانية وطلاقته الفنية وحرارة تعبيره وإن كنا نأخذ عليه الإيجاز في محاكمة بودلير مع أنه عرض لها أكثر من مرة في فصله هذا مما يدلنا على إلمامه بدقائق هذه المحاكمة وخاصة عند ما نوه بزعيم الإبداعيين فيكتور هيجو ودفاعه عن بودلير كفنان ، وقد كان على المؤلف أن يُشبعَ الموضوع بتفاصيل هذا الدفاع

أما الكلمة التي نقلها المترجم عن الكاتبة « ريبكا » في الأدب الإنجليزي الحديث فهي من أدق وأوفى الدراسات التي كتبتها هذه الأديبة العظيمة فقد اشتغلت بالتأليف الأدبي مدى ثلاثين عاماً ، وحسبنا هذا ثقة بآرائها في الأدب المعاصر

وقد وفق علي محمود طه في ترجمة قصيدة شلي ودي فيني وقصائد ماسفيلد وسيتول و « فنست ملاي » توفيقاً عظيماً وخاصة في الثلاث قصائد الأخيرة فإنه يبلغ الذروة في الدقة والرقة والقوة

أما قصيدته في قبرة شلي فقد جمعت كل ما سكبه قلب الشاعر الإنجليزي العظيم من الحلاوة والحرارة والصفاء وكل ما جادت به شاعرية المترجم من فنون التصوير والغناء وسعة الخيال وحسن الأداء ، ولقد قدم المترجم لقصيدتي شلي ودي فيني بكلمتين عن الشاعرين ولم يصنع ذلك في بقية القصائد ، ولو كان صنع ذلك لحمدنا له صنعه

وما أحسب أن الملاح التائه قد أهمل عن عمد تعريفنا بملاح غير تائه هو جون ماسفيلد شاعر العرش البريطاني الذي بدأ حياته ملاحاً صغيراً يعمل في البحر وهو في الرابعة عشرة من عمره

أما القسم الأخير من كتاب أرواح شاردة ، فأنا شديد الإعجاب به ، مفتون بالصور التي رسمها المؤلف لرحلاته في أوربا ، مشغوف بالحوار الذي أجراه علي محمود طه على ألسنة الأشخاص الذين التقى بهم في طريقه ؛ فليست هذه المقالات مجرد وصف وتزويق من الخيال ، بل هي ظلال وأضواء من الفن والعلم والأدب محتفلة بالرشاقة والعذوبة وخفة الروح ، ممثلة لهذه العناصر أبدع تمثيل ، كأفذاذ كتاب الأقصوصة ، حتى لتشيع فينا ألواناً من الطرب الروحي ساعة من زمن أو لحظة من وقت كما يُشيع إشراق الكأس المترعة طربَ الشُّرب وصَحْو الندمان ؛ وحبذا لو أتحفنا علي محمود طه بكتاب يفرده لهذه الذكريات مضيفاً إليها ما أظنه لم يجد وقتاً لكتابته أو بالنسبة لحجم كتابه « أرواح شاردة »

أما القصيدة التي ختم بها المؤلف كتابه والتي أنشأها في محنة باريس وطلعت بها (مجلة الرسالة) على العالم العربي ، فهي مثال من الحسرة والعبرة التي عرفناها في شعر شوقي في مثل هذه المناسبات !

فليهنأ عالم الأدب بملاحنا التائه ، وليهنأ هو بأرواحه الشاردة

محمد فهمي كمال

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)